محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الرابع والعشرون

تأليــــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

بسم الله الرحمن الرحيم

الأزهر

مجلة إسلامية شهرية يصدرها مجمع البحوث الإسلامية

تأسست عام ١٣٤٩ هـ - ١٩٣١م

غَزوَة أُحُد

أحداثها وآثارها في تربية المجتمع المسلم

تشابه في بعض المواقف بين بدر وأحد

كانت غزوة أحد امتدادًا لغزوة بدر في الوسائل والمقدمات والمقاصد والغايات والوقائع والأحداث، وكانت الفواصل الزمنية بينهما -على تقاربها- معالم للاتصال الوثيق لتوقعات المستقبل وما يحويه بين جنباته من ترقبات لوصل حاضر المجتمع المسلم في نضاله المرير بماضيه في كفاحه الصبور، ليكون هذا الماضي في إطار الإيمان خطًا متوحد المنازل والمسالك مع حاضر المجتمع في ظل رسالته الخالدة الخاتمة لرسالات السماء في حياة خاصة ممتدة عبر الحياة الإنسانية العامة في كفاح لا ينقطع، ونضال لا تسكن حركاته ولا يهدأ أواره، من أجل إنقاذ الإنسانية المعذبة في الأرض من تورطاتها الوثيقة المتهالكة وشركها الطاغي العنيد.

في هذا الإطار الإيماني كانت خطوط حياة المجتمع المسلم في جهاده القتالي ترسم له معالم مسيرته في دعوته إلى الله، ونشر رسالته، رسالة الخير والهدى التي بعث الله بها نبيه محمدًا ﷺ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

وقد كانت غزوة بدر ضربة قاصمة لملأ الفجور الوثني، ترنّح منها طواغيته ترنحًا أدار رءوسهم واستدار بهم كما تستدير الحمر النعرة، ولكنهم بعد صحوة من سكر الهزيمة تماسكوا

مستمسكين بعتو كفرهم، وأبوا إلا أن يعودوا إلى مواجهة جند الله، ليصلوا ماضي وثنيتهم الجاهلية الباغية بحاضر فجورهم الكفور حتى يكون ماضيهم الخبيث وحاضرهم الفاجر صورة لطغيان مستقبلهم الإلحادي المشرك الكفور، ليكون هذا الحاضر الخبيث حلقة اتصال في توحيد الزمن بأحداثه في النضال بين الكفر والإيمان، والهدى والضلال، حتى يكون هذا الماضي حلقات متواصلة في سلسلة الفجور الوثني لحياة الطغيان في لفائف الشرك الملحد، والطغيان الحقود.

تلك السلسلة التي وهت حلقاتها من طول ما مر بها من الزمن، وكثرة ما ألقى عليها الظلمُ المظلم من صدئه وأقذاره، لأن التجاذب بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، والنور والظلام، والعدل الرحيم والظلم الظلوم طبيعةٌ أصيلة في الحياة بين الناس والأشياء، هذه الطبيعة المتجاذبة هي في الحقيقة آية من آيات الله، تحمل في طياتها أعظم البراهين وأعمق الأدلة على إطلاق مشيئته -تعالى- في تدبير الكون المتآلف في نظامه التكويني، المتخالف أشد التخالف في سيره العملي، وبين التآلف والتخالف تناقض في نظر العقل الإنساني الذي لا يؤمن في دائرة مدركاته بغير الخط الموحد لسير الحياة في أحداثها ووقائعها سيرًا مستقيم المعالم المنصوبة على حفافي الطريق.

وسيان عند هذا العقل -إذا لم يهده الإيمان بخالق الكون واقتداره على قهر الحوادث، وإطلاق مشيئته في طريقة وجودها الواقعي في مسيرة الحياة -أن يتغلب الخير على الشر، فيسود الخير أرجاء الحياة، وينقمع الشر متواريًا في الظلام أو يغلب الشر

الخير ، فيعلو صوت الشــر في آفاق الحياة صياحًا صاخبًا معربدًا ، ويخفــت صوت الخير فلا نســمع منه إلا همسًــا ، والشــر والخير فــي التغالب لن يجمعهما خــط متوحد في حيز وجودي من الزمان والمكان ، لأن العقل الذي لم يتخذ من الإيمان بخالق الحياة هاديًا ليــس فــي يده معيــار ذاتي يعرف به الشــر متميــزًا بخصائصه عن الخير سوى معيار النفع والضرر ، فما كان في نظر العقل نافعًا فهو خير ، وما كان ضارًا في تقديره فهو شر .

والنفــع والضــرر في مجريــات الحيــاة للناس والأشــياء أمران نســبيان قد يشــتبه أحدهما بالآخر في كثير من الصور والأشكال التي تغلف الوقائع والحوادث ، فيعطي من الأوصاف ما ليس له في حقيقة الواقع الوجودي .

وكثيــرًا ما يكون الأمر الواحد نافعًا فــي بعض جوانب الحياة ، ويكون هو نفسه بعينه ضارًا في بعض جوانب أخرى من الحياة .

فإذا رأى العقل الإنساني بمدركاته الذاتية التي لم تهتد بالإيمان بخالق الحياة الجانب النافع -في نظره- حكم له بالخيرية ، ورغب فيــه ودافــع عنه ، وإذا رأى هــذا العقل الجانب الضــار -في نظره- حكم عليه بالشــرية ، ورغــب عنه ، ودافعه ليكتم أنفاســه حتى لا يتنسم نسمة الوجود في الحياة .

ومــن ثم كان إطــلاق العقل الذي لم يهتد بالإيمــان ليقود الحياة بمعاييره الذاتية المحدودة تعويقًا للحياة عن سيرها إلى آفاق الهداية لتوطيد دعائم السلام والإخاء والمحبة بين الناس في أرجاء الأرض .

لكن الذين أشــركوا بالله آلهة أخرى اتخذوها معبودات لهم مع الله -تعالــى- يدعونهــا ويتقربــون إليها بأنــواع القرابين ، والذين

ألحدوا فـي آيات الله بالتكذيب والاستهزاء والسـخرية فأنكروا وجـود الله، وعميـت أبصارهـم وبصائرهـم عن حكمتـه في نظام الكـون ودلالة هـذا النظام المحكم على وجـوده واقتداره وإطلاق مشـيئته وإحاطة علمه -يأبون إلا أن يقـودوا الحياة بأزمة عقولهم الوثنيـة القاصـرة، ويسـوقوها بسـياط الكفر والفجـور ليجعلوا من أنفسـهم حمـاة للحياة الفاجرة، ويجعلوا مـن فجورهم طرائق لمسيرة الحياة يوجهونها بمشيئاتهم.

وكان كفـار قريش ومشـركوهم ممن عَسَـوا في حمـأة الوثنية الباغية،[١] نموذجًا لهذا الفجـور العنيد بوقوفهم أمام دعوة الحق والهـدى التي جاءتهم على يد رجل منهم، يعرفون صدقه وأمانته، ويعرفـون منبعـه ومربـاه، ويعرفـون مدخلـه ومخرجـه، وغدوه ورواحه، وحركته وسـكونه، وأخذه وعطاءه، وسـلوكه في الحياة وعشرته مع الناس والأشياء.

فانبعثـوا لمناهضة هذه الدعوة الراشـدة الهاديـة التي أرادتهم سـدنة لها لتجعل منهم سادة ذادة[٢]، يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعـروف، وينهون عن المنكر، وقادة يأخذون بزمام الإنسـانية إلى آفاق حضارة إيمانية، يبنون دعائمها على قواعد منهج الرسالة الخالـدة، ولكن هؤلاء الكفرة ركبوا متن الشـيطان غرورًا وعتوًا، وطغيانًـا وكفـرًا، فجعلوا من ظهور طلائع الإيمان مهابط لسـياط تعذيبهم يصبونه عليهم بلاء ليفتنوهم عن دينهم، حتى أخرجوهم من ديارهـم وأموالهم مهاجريـن إلى إخوانهم أنصـار الله بالمدينة

(١) عسى: كبرُ واشتد وصلُب. (المجلة)
(٢) ذاد عن الشيء دافع عنه. (المجلة)

التـي صارت عاصمة المجتمع المسـلم وقلعته الحصينة التي فيها بناء المجتمع الجديد في تركيبه الاجتماعي المتكافل على دعائم التآخـي بين أفراد هذا المجتمع وجماعاته، فكان بهذا التآخي قوة موحدة الوسـائل والأهداف، تسـتطيع أن تواجه أعداء الدعوة إلى الله ورسـالة الهـدى والنور، مهمـا بلغ طغيانهم المـادي، وقوتهم الخاوية من دوافع الإيمان وأهدافه الإنسانية.

وقـد كانـت هجرة طلائـع الإيمان مـن السـابقين الأولين إلى المدينـة غصةً في قلـوب قريش وطواغيتها، أشـجت صناديدها، وأثارت في نفوس أشراف جاهليتهم حفائظ الحقد الحانق والغيظ الكظيـم، ممـا جعلهم فـي هم مقيـم مقعد، يفكـرون ويقدرون، ولا هـدف لهم فـي تدبيرهم وتقديرهم إلا القضـاء على المجتمع المسـلم الجديد الذي سـيقضي على تجاراتهم وهي صاعدة نازلة غاديـة رائحة، مارة على مدينتهم في عيراتهـا وقوافلها، وفي هذه العيـرات والقوافـل الأموال التي نهبوها في مكـة من المهاجرين، وجعلوها مع أموالهم في تجاراتهم.

ولـم يكن يغيب عن ملأ أولئك الطغاة من فجار الكفر وأحلاس الوثنيـة الفاجرة،[٣] أن المجتمع المسـلم فـي تركيبه الاجتماعي الجديـد، وقوتـه التي كانـت ثمرة من ثمـرات وحدتـه الإيمانية ومؤاخاتـه التكافليـة لن ينام علـى الضيم مطمئنًـا دون أن ينهض ليسـترجع أمواله المنهوبة منـه، ودون أن يقف في طريق عيراتهم وقوافلهـم المحملة بهـذه الأمـوال وغيرها لينتزعها مـن أيديهم

(٣) الحِلس ما يُفرش ليجلس عليه. ويستعار للملازمة فيقال هو حِلس كذا أي لا يفارقه. (المجلة)

كرهًا وقسرًا، ودون أن يعمل كل ما يستطيع في وضعه الجديد لتكسيد تجاراتهم، وتبوير سعيهم، وكسر شوكتهم المادية المتعززين بها.

وقد كان هذا التصور -وهو حقيقة- كشف عنها تحفز المجتمع المسلم للوقوف في طريق قوافلهم ليصدها عن المرور على مدينته، ويغنم ما فيها من أموال كانت مصدر غرور هؤلاء الفجرة، عملًا بأبسط قواعد الحرب المعمول بها في قانون الحياة الإنسانية -يملأ أدمغة أولئك المستكبرين في الأرض، فكان لا بد لهم من الاستعداد لمقاومة هذا المجتمع المسلم وفتح الطريق أمام عيراتهم وقوافلهم، وحمايتها بقوة السلاح.

وها هو ذا محمد ﷺ وأصحابه، قد تعرضوا لها ليغنموها، ويغلقوا الطريق أمام تجارتهم، وقد أرسل إليهم أمير أضخم عيراتهم أبو سفيان بن حرب ينذرهم ويحرضهم لينفروا لحماية أموالهم التي خرج إليها محمد ﷺ في جموع أصحابه ليستولي عليها عنوة، فتجمعوا بأضخم ما في استطاعتهم من قوة مادية عددًا وعدة، موعبين في حشودهم كل من له طاقة بالحرب والقتال تحت قيادة لَعينهم الفاسق أبي جهل بن هشام(٤)، مما كان سببًا مباشرًا لوقعة بدر، وهي أول وقعة واجه فيها مجتمع الإيمان بالله، وحماة الحق والدعاة إلى الله القائمون على نشر الهدى والنور والإصلاح - أحلاسَ الشياطين من فجرة الشرك وطواغيت الوثنية الباغية.

وكانت بدر، فكانت نكالًا لهم، ووبالا عليهم، هزموا فيها

(٤) موعبين في حشودهم: مستوعبين فيها. (المجلة)

شر هزيمة، حسَّت صناديدهم بالمهندات من السيوف المسلمة، واستأصلت أشـراف جاهليتهم قتلًا، وأسرًا، وتشريدًا، وفرارًا في فجاج الأرض، حتى بلغ فلُّهم مكة،(٥) مهزومين أذلاء يعضون بنان الحسرة والاندحار، وهم في ذهول وحيرة، لا يصدقون ما يبصرون بأعينهم، لأن هذه الهزيمة لم تكن تمر بخيالهم المظلم بظلمات الغم والحزن الكظيم.

وقد من عليهم رسول الله ﷺ بما جبل عليه من مكارم الأخلاق والعفـو عند المقـدرة فأطلق أسـراهم، وقبـل منهم الفـداء، بعد أن كانـوا في ملـك يده، محكومين بسـلطانه، يسـتطيع أن يلقي برءوسهم تحت أقدامهم.

وذهـب طلقـاء بدر يجـرون أذيال الخيبـة والحسـرة إلى مكة، وكانت فلول الجبن المشـردة قد باءت ذليلة إليهم، واجتمع هؤلاء وهـؤلاء، والحقد الحانق يشـوي أكبادهم، وحفائـظ الضغينة تملأ قلوبهم، فلم تترك فيها مكانًا لغير المناداة بالثار لقتلى أشرافهم في بدر، ممن سحبوا على وجوههم إلى القليب على أوجع صورة وأشنع ما يسـتحقه الفاجـرون من الكافريـن المفترين علـى الله الكذب، المغرورين بما في أيديهم من قوى مادية بشرية، وعتاد حربي.

وكان أبو سـفيان أمير العير بعد إذ نجا بها وبما فيها من أموال، ووصـل إلى مكة وجدها تئن من الأحـزان التي ألمت بها، وتتأوه من أوجاعها التي حلت بأهلها، ولم يجد إلا رءوسـا منكسـة، قد جللها الـذل وأحاط بها الهـوان وأمال أعناقهـا الغيظ علـى مناكبها، غمًا وكمدًا، فمشـى إليـه عبد الله بن أبي ربيعة بـن المغيرة المخزومي،

(٥) الفَلُّ: المنهزم. والجمع فلول. (المجلة)

أحد أشراف الجاهلية في قريش، وقد أسلم يوم الفتح، وهو أخو عياش بن أبي ربيعة لأبيه وأمه، وكان عياش من السابقين الأولين في الإسلام، وكان رفيقا لعمر بن الخطاب في هجرته، وعياش وعبدالله ابنا أبي ربيعة أخوان لأبي جهل لأمه، أسماء بنت مخرِّبة، ومشى مع عبد الله بن أبي ربيعة عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية بن خلف -وكان أبواهما من قتلى بدر- في رجال من قريش ممن قتل آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان بن حرب أمير العير، وكلموا من كان له في تلك العير من قريش تجارة وأموال، فقالوا لهم: يا معشر قريش إن محمدًا قد وتركم[٦]، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال -يقصدون ما كان في العير من تجارة- على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرًا، فأجابوهم إلى ما طلبوه منهم.

ونهض الموتورون لحرب رسول الله ﷺ واستأجر أبو سفيان ألفين من الأحابيش بزعامة سيدهم الحليس بن زيان أخي بني الحارث بن عبد مناة، فخرج بهم مع من أطاعه من قبائل كنانة وتهامة، ومع من كانت به قوة على الخروج من فَلّ قريش الذين فروا من بدر إلى مكة، ومع الخائنين من طلقاء أسرى بدر أمثال أبي عزة الذي مَنَّ عليه النبي ﷺ بغير فداء لشكواه سوء حاله وقلة ذات يده، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه عدوًا، ولكنه خان العهد وغدر، وخرج إلى أُحد مع المشركين فأُسر وقتل جزاء غدره وخيانته، فكانت حشودهم ثلاثة آلاف، معهم مئتا فرس، وثلاثة آلاف بعير، وساروا يقصدون المدينة حتى نزلوا في سبخة في وادي عينين أَحَدِ أَجْبُل المدينة، ويقع في مقابلة أحد.

(٦) وترَ فلانا: قتل ولَده أو قريبه. (المجلة)

العباس يكتب لرسول الله بمسير قريش لحربه:

وكتب العباس بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ كتابًا يخبره خبر قريش وسيرهم لحربه في عدد وعدة وبعث بالكتاب رجلًا من بني غفار، اشترط عليه أن يأتي المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ليسبق بالخبر قريشًا ويستعد رسول الله ﷺ لملاقاتهم، فقدم رسول العباس على رسول الله ﷺ فلقيه في قباء، وسلم إليه كتاب العباس رضي الله عنه، وأعطى رسول الله ﷺ الكتاب إلى أبيّ بن كعب ليقرأه عليه، فقرأه أبي واستكتمه رسول الله ﷺ ما فيه من خبر قريش وقدومها لحربه بحشود وافرة العدد والعدة لمهاجمته في مفاجأة تقيد حركة المجتمع المسلم في النهوض للقتال والاستعداد له، وأطلع رسول الله ﷺ سعد بن الربيع أحد سادة الأنصار وخلصائهم على كتاب عمه العباس.

هذا الموقف الكريم الذي وقفه العباس رضي الله عنه موقف يستحوذ على ذروة الإخلاص، ويعيد للذاكرة موقفًا للعباس قبل أن يسلم كان من أنبل المواقف وأشرفها بالنسبة لمواقف الحمية القومية، ذلك هو موقف العباس يوم بيعة العقبة الكبرى، فقد حضر بيعة الأنصار لرسول الله ﷺ، وخطب خطبته المشهورة المروية بصحيح الروايات، وذكر فيها: إن محمدًا في عز ومنعة من قومه، فإن كنتم مبايعيه على تحمل عداوة الأحمر والأسود، فأنتم وما تحملتم، وإلا فدعوه بين قومه، وتمت البيعة والعباس من شهودها وهو على دين قومه.

كما يعيد هذا الموقف للذاكرة مواقف الحمية الهاشمية التي كان يقفها أبو طالب حمية قومية للنبي ﷺ دفاعًا وردًا للعدوان

على دعوته، بيد أن موقف العباس موقف ينم عن الإخلاص الإيماني الذي يجعل الباحث مطمئنًا إلى أن الإيمان برسالة محمد ﷺ كان يملأ قلب العباس قبل أن يلحق بمكة بعد إطلاقه من الأسر وقبول الفداء منه، كما يدل عليه قول العباس: فينا نزل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال: ٧٠).

وإذا كانت حمية أبي طالب جعلت موقفه -لعدم إيمانه- من قبيل الحب الطبيعي للقرابة الدانية والحمية القومية، فموقف العباس رضي الله عنه كان موقف الحب الإيماني الذي يكنفه الإخلاص للمجتمع المسلم في ظل الإخاء الإيماني، فهو موقف لمحمد ﷺ ابن الأخ الحبيب.

وهو موقف لحماية رسالة محمد ﷺ وحماية دعوته إلى الله تعالى.

وهو موقف لأداء حق الإيمان بهذه الرسالة الكريمة الراشدة.

وهو موقف للدفاع عن أصحاب محمد ﷺ، ومجتمعه المسلم.

وهو موقف يحمل بين طياته دلائل على أن النبي ﷺ جعل من عمه العباس رضي الله عنه رئيس مخابراته في مكة وجنديًا من خواص جنود دعوته وحماية رسالته، يذود عنها بسلاح التعرف على حركات أعداء هذه الدعوة فيما يحاك لها من الكيد وسوء المكر، وما يدبر لمجتمعها تحت أستار الظلام للقضاء عليه وعلى دعوته.

وهذا سلاح من أقوى أسلحة المعارك التي تربط النصر على الأعداء بنجاحه وإحكام أمره.

وكان العباس رضي الله عنه يحب القدوم على رسول الله ﷺ ليقيم معه بالمدينة، ويشهد معه مشاهده، ويكون إلى جانبه في مواقفه، ولكن رسول الله ﷺ استبقاه بمكة ليقوم للدعوة بما لا يستطيع جندي يحمل سلاحه ويخوض معمعة المعركة أن يقوم به.

والمتأمل في هذه السياسة الحكيمة التي وضع أساسها رسول الله ﷺ يظهر له جليًا ما فيها من حسن التدبير المحكم الذي يحف به التوفيق من جميع جوانبه، لأنها سياسة تمثل ما ينبغي للقائد الأعلى أن يتخذه في مواقفه الحذرة التي لا تنام ولا تنيم.

قال القسطلاني في المواهب: وكان العباس يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان العباس يحب القدوم على رسول الله ﷺ، فكتب إليه عليه الصلاة والسلام: «إن مقامك بمكة خير لك» وهو خير للمسلمين -أيضًا- لما فيه من العون للمقيمين بها من المسلمين المستضعفين، وتقوية ثباتهم على الإيمان، ولما فيه من معرفة أخبار أعداء الإسلام، وتآمرهم على المجتمع المسلم ومكرهم به، ووضع هذه الأخبار بين يدي رسول الله ﷺ في حينها المناسب لاتقاء أخطارها، وأخذ الأهبة لرد ما فيها من كيد للإسلام والمسلمين، وكان هذا من دأب رسول الله ﷺ، كما أوضحناه في الحديث عن بدر، وعلى هذا السنن درج رسول الله ﷺ وقد بعث أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة الظفري في غزوة أحد ليتعرفا له أخبار عدوه، فذهبا وقاما بما كلفهما رسول الله ﷺ وعادا فأخبراه بخبرهم، وذكروا له أنهم أرسلوا إبلهم وخيلهم في

زروع الأنصار بالصمغة حتى تركوها ليس بها خضراء، وكان ذلك من بواعث الحمية في أنفس الأنصار.

ثم أرسل ﷺ الحباب بن الجموح ليحزر له أعداد أعدائه فذهب إليهم، وداخلهم، ودخل في عسكرهم، وعاد إلى رسول الله ﷺ يخبره بما علم من أخبارهم وأعدادهم وعُددهم القتالية.

رؤيا النبي ﷺ أحداث أحد وشدائدها:

وكان رسول الله ﷺ قد رأى رؤيا منامية، ورؤيا الأنبياء وحي ينزل بما احتجب من الغيب عن غير الأنبياء والمرسلين، فحدث بها أصحابه، وذكر لهم تأويلها وما أنبأت به من أحداث ستقع عندما يحين وقتها.

وحديث رؤيا أحد رواه البخاري ومسلم، والترمذي وابن ماجه، والبيهقي وجميع رواة المغازي والسير. قال البخاري من حديث أبي موسى الأشعري من طريق أبي كريب -واسمه محمد بن العلاء- وقد ذكره البخاري باسمه- عن أبي أسامة عن النبي ﷺ قال: «ورأيت أني هززت سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقرًا والله خير[٧]، فإذا هم النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير، وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر».

(٧) قوله (والله خير) له تفسيران: الأول: أنه سمع في الرؤيا من يقولها بمعنى هذا والله خير. والثاني: أنها من قول النبي ﷺ بمعنى وما صنع الله بشهداء أحد خير لهم من بقائهم في الدنيا. (المجلة)

ورواية البيهقي عن شيخه أبي عبدالله الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما أشمل وأوضح، قال: وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأيه أن يقيم بالمدينة، فيقاتلهم فيها، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرًا: نخرج يارسول الله إليهم نقاتلهم بأحد، ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله ﷺ حتى لبس أداته[٨]، ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم، فالرأي رأيك فقال لهم: «ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعدما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

وكان ﷺ قال لهم يومئذ قبل أن يلبس الأداة: «إني رأيت أني في درع حصينة، فأولتها المدينة، وأني مردف كبشًا فأولته كبش الكتيبة، ورأيت سيفي ذا الفقار فل، فأولته فلا فيكم، ورأيت بقرًا يذبح، فبقر والله خير» وفي حديث أنس عند البيهقى من طريق حماد بن سلمة عن علي بن زيد قال أنس يرفعه إلى النبي ﷺ: «رأيت فيما يرى النائم كأني مردف كبشًا، وكأن ضبة سيفي انكسرت، فأولت أني أقتل كبش القوم، وأولت كسر ضبة سيفي قتل رجل من عترتي» فقتل حمزة، وقتل رسول الله ﷺ طلحة، وكان صاحب اللواء، أي أن كبش الكتيبة قتل في المبارزة بينه وبين علي رضي الله عنه، فنسب قتله إلى رسول الله ﷺ؛ لأنه القائد الأعلى.

وفي سيرة موسى بن عقبة -كما نقله ابن كثير في البداية، واختصرناه عنه- قال: وكان رجال من المسلمين لم يشهدوا بدرًا قد ندموا على ما فاتهم من السابقة، وتمنوا لقاء العدو، ليبلوا ما أبلى إخوانهم يوم بدر، فلما نزل أبو سفيان والمشركون بأصل

---

(٨) لبس أداته: لبس لباس الحرب. (المجلة)

أحد فرح المسلمون الذين لم يشهدوا بدرًا بقدوم العدو عليهم، وقالوا قد ساق الله علينا أمنيتنا، ثم إن رسول الله ﷺ أري ليلة الجمعة رؤيا، فأصبح فجاءه نفر من أصحابه فقال لهم: «رأيت البارحة في منامي بقرًا تذبح والله خير، ورأيت سيفي ذا الفقار انفصم من عند ضبته، أو قال به فلول، فكرهته، وهما مصيبتان، ورأيت أني في درع حصينة، وأني مردف كبشًا» فلما أخبرهم رسول الله ﷺ برؤياه قالوا: يا رسول الله ماذا أولت رؤياك؟ قال: «أولت البقر الذي رأيت بقرًا فينا وفي القوم، وكرهت ما رأيت بسيفي، وأولت الكبش أنه كبش كتيبة العدو، يقتله الله، وأولت الدرع الحصينة المدينة، فامكثوا، واجعلوا الذراري في الآطام، فإن دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم ورُموا من فوق البيوت».

فقال الذين لم يشهدوا بدرًا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا وقرب المسير، وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله ﷺ.

وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول موافقًا لرأي رسول الله ﷺ في عدم الخروج من المدينة والمكث فيها، وابن أبي كان مع نفاقه من ذوي الشرف الجاهلي، وهو خزرجي من كبارهم وأهل الخبرة والتجربة فيهم، ولهذا أشار على رسول الله ﷺ برأيه مبينًا الأسباب التي بنى عليها رأيه في خبرته ببلده وتجاربه في قومه، فقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أقم بالمدينة لا تخرج منها، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقاموا بشر مجلس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان

بالحجارة من فوقهم، فإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا.

وكانت الكثرة وجمهور الأكابر من الصحابة يرون رأي رسول الله ﷺ ولا سيما بعد أن أخبرهم برؤياه، فكان رأيهم تبعًا لرأي رسول الله ﷺ وكانت كثرة الشباب ومن فاتهم مشهد بدر يرون أن يخرج بهم رسول الله ﷺ إلى عدوهم، ليعوضوا ما فاتهم من فضل بدر، وما سمعوه منه ﷺ في فضلها وفضل من شهدها، وكانوا يودون لو أتاح الله لهم غزوة ينالون بها مثل ما نال البدريون من الفضل وعظيم الثواب.

وكان مع هؤلاء الشباب بعض الأكابر من المهاجرين والأنصار، مثل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، ومثل سعد بن عبادة سيد الخزرج، والنعمان بن مالك أحد أبطال الأنصار وغيرهم من أبطال المجتمع المسلم، وقالوا مسوغين لرأيهم: إنا نخشى أن يظن عدونا أنا كرهنا الخروج إليه جبنًا عن لقائهم فيكون هذا جراءة منهم علينا.

وقال حمزة رضي الله عنه: والذي أنزل عليك الكتاب لا أطعم اليوم طعامًا حتى أجالدهم بسيفي خارج المدينة، وقال النعمان بن مالك الأنصاري: يا رسول الله لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها، فقال رسول الله ﷺ «لمه؟» فقال: لأني أحب الله ورسوله، ولا أفر من الزحف فقال ﷺ: «صدقت» فاستشهد يومئذ.

وقد أورد الزرقاني في شرحه مواهب القسطلاني سؤالًا، وأجاب عنه فقال: فإن قيل لم عدل ﷺ عن رأيه الذي لا أسدَّ منه، وقد وافقه عليه أكابر المهاجرين والأنصار وابن أبيٍّ وإن كان منافقًا

لكنه من الكبار المجربين للأمور، ولذا أحضره ﷺ واستشاره - إلى رأي هؤلاء الأحداث؟ قلت: لأنه ﷺ مأمور بالجهاد، خصوصًا وقد فجأهم العدو، فلما رأى تصميم أولئك على الخروج، لا سيما وقد وافقهم بعض الأكابر من المهاجرين كحمزة، والأنصار كابن عبادة ترجح عنده موافقة رأيهم، وإن كرهه ابتداء ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، قال الزرقاني: وهذا ظهر لي، ولم أره لأحد.

وهذا الذي ظهر للعلامة الزرقاني ولم يره لأحد من العلماء والأئمة قبله يحتاج إلى نظر وبحث، لأن النبي ﷺ لم يطلب من أصحابه المكث بالمدينة وعدم الخروج عنها لمقاتلة أعدائه خارجها رأيًا اجتهاديًا، وإنما هو تبليغ لما أوحي إليه في رؤياه المنامية التي رآها وأولها وبلغها لأصحابه، ورؤيا الأنبياء وحي بإجماع الأمة، ويدل لذلك حديث عائشة عند البخاري في بدء الوحي، إذ قالت رضي الله عنها: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

فإيراد السؤال بالصورة التي أورده عليها الزرقاني ينافي أن الأمر من قبيل الوحي الذي لا تجري عليه مشاورة قط، ولا يدخله الاجتهاد؛ لأنه لا مشاورة في أمر نزل به الوحي، ولا اجتهاد مع النص، لأن الاجتهاد قد يدخله الخطأ فيصح العدول عنه إلى رأي آخر تظهر صوابيته وهنا قد ثبت الوحي بالرؤيا الصادقة وتأويلها من رسول الله ﷺ والوحي لا يصح العدول عنه إلا بوحي مثله أو أقوى طريقة من نوعه.

فلا وجه لهذا السؤال بالصورة التي أوردها الزرقاني، وإذن لا محل لهذا الجواب الذي أجاب به عن السؤال، بل كان يجب أن

يكون السؤال: لِمَ عدل رسول الله ﷺ عن مقتضى رؤياه وهي وحي من الله تعالى إلى رأي هؤلاء الأحداث الذين استحوذت عليهم عواطف حب الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله وكلمة الحق والهدى والنور، مع أن النبي ﷺ أخبرهم برؤياه وسألوه عن تأويلها فأخبرهم بها وأولها به، وهم يعلمون أن رؤياه ﷺ ضرب من الوحي وطريق من طرائقه؟

مخالفة رسول الله كانت من أكبر أسباب قرح أحد:

وحينئذ يكون الجواب الملاقي لهذا السؤال ملاقاة متلائمة أن رسول الله ﷺ لم يعدل عما طلبه بمقتضى رؤياه وتأويلها -من المكث بالمدينة ومقاتلة أعدائه في طرقاتها ومن فوق بيوتها، وعدم الخروج عنها لملاقاة أعدائه خارجها كما هو رأي الشبان الأحداث الذين يريدون أن يعوضوا فضلًا فاتهم في بدر بالخروج في غزوة يكون لهم فضلها -إلا بوحي ناسخ لوحي الرؤيا الصادقة التي رآها ليتم قضاء الله ويتحقق ما قدره في غيبه من ابتلاء المؤمنين، ليكون ذلك الابتلاء درسًا تربويًا شديد الوقع، عميق الأثر في مستقبل المجتمع المسلم الذي لا ينبغي له أن يخضع للتأثر بالعواطف، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ينزل عليه الوحي، بل يجب أن يكون هوى كل مسلم تبعًا لما يُبَلِّغُه رسول الله ﷺ من الوحي إليه بأية طريقة من طرائقه، وليس بلازم أن يخبر ﷺ بالنسخ، ولهذا لما رأى رجال من أهل الرأي والسداد أن مخالفة رسول الله ﷺ وخيمة العاقبة ندموا وقالوا: أمرنا رسول الله ﷺ أن نمكث بالمدينة، وهو أعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحي من

السماء، فقالوا لرسول الله ﷺ: امكث كما أمرتنا، فقال ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا أخذ لأمة الحرب، وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا المكث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو، وانظروا ما أمركم الله به فافعلوه». ففي هذا دليل على أنهم كانوا يعلمون أن رؤيا النبي ﷺ وحي من الله، وأنهم خالفوا رسول الله ﷺ وهو فيهم يأتيه الوحي، وأنه لا يتصرف إلا بأمر من الله وهو ﷺ أعلم بالله وما يريد، فمخالفته ومطاوعة العواطف مهما كان نبلها خروج عما يجب على المجتمع المسلم أفرادًا وجماعات من الطواعية له ﷺ لأنه أعلم بالله وما يريد ويأتيه الوحي من السماء، ونبل العاطفة قد يكون فيها العذر للمخالفين لأنهم أرادوا الخير.

ولهذا لما ثابوا إلى طريق الاستقامة وعرفوا الحق طلبوا من رسول الله ﷺ أن ينفذ رؤياه على تأويله لها، ويمكث في المدينة لمقاتلة أعدائه في أزقتها وفجاجها وأسطح بيوتها، فأبى عليهم أشد الإباء؛ لأن هذا الموقف منهم بعد موقفهم الأول يؤدي إلى التردد المفكك لوشائج العزائم الصافية، وهذا التردد يُطمع العدو فيهم ويجعله يظن بهم الظنون، والله تعالى يقول لرسول ﷺ:

﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾

(آل عمران: ١٥٩)

فالعزيمة بعد المشاورة لا تقبل التردد، والرجوع عن سَمْتِها الذي اتجهت إليه ووضعت قدمها في أول خطوة من خطواتها في مسيرتها نحو هدفها.

تغلبت فكرة الخروج للقاء العدو ومقاتلته خارج المدينة،

وكان الموجه لهذا التغلب عاملين :-

أولهمـا : موقف الذين فاتتهم بدر فلم يشـهدوا معركتها ، ولم يشـاركوا في جهادها وحرموا فضلهـا ، وكانت الكثرة الغامرة في هؤلاء من الأحداث الذين لم تتح لهم فرصة شـهود أول معركة في الإسـلام ، التي أربى فضلهـا على كل فضل ، تلك هـي معركة بدر وهـذا العامـل كان يمكن أن يتلاشـى ، وتتبدد عناصـره ، ويذوب وينمـاع ويذهـب تأثيره لـولا ظهور العامـل الثاني في قـوة حازمة وعزيمة ماضية وإرادة قاهرة .

أمـا العامـل الثانـي فيتجلى فـي موقف القـوة الحازمـة التي لا تقـف مع الأحـداث فـي تقلباتها ، ولكنهـا تتخطاها مسـرعة في عزيمـة صارمة ، وقـوة قاهرة ، لا تبالي بالنتائج مـع إعطائها وزنها الصحيح في مقاييس الحياة المستقبلة . ذلك هو موقف النبي ﷺ فـي المضي إلى المعركة خارج المدينـة على ما في جنباته من آلام قاسـية ، كان النبـي ﷺ وحده هو الذي يقرأ أسـطره في صفحات الغيب من لوح الأقدار .

وهنا يلمع بصيص من النور في قلبي رجلين من سـادة الأنصار ، كانا عند إسلامهما مشرق شمس لهداية الإيمان ، ذانك العظيمان هما سـعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، فيقولان للذين استأسرتهم عواطف الشباب واستفزهم التطلع إلى البطولة : استكرهتم رسول الله ﷺ علـى الخـروج وقلتم له مـا قلتم ، والوحي ينـزل عليه من السماء فَرُدُّوا الأمر إليه ، فخرج عليهم ﷺ وقد لبس لأمته ، وتهيأ بأداة الحرب ، وظاهر بين درعين فندم الذين كانوا يرون الخروج ، وقالوا له ﷺ : ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت ، فرد عليهم

ﷺ بقولـه : «ما ينبغي لنبي لبس لأمتـه أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه» .

قرارات مستقبل الأمة في المعارك الحربية يجب ألا تخضع للعواطف:

وفي هذا الموقف درس من دروس منهج الرسالة الخالدة محصله : أن اتخاذ القرارات في المعارك الحربية ونقض هذه القرارات يجب أن لا يخضع للعواطف النفسية مهما تبلغ من الإخلاص واحتمال تحقيق الهدف المطلوب ، وإنما ينبغي أن تسـبق هذه القرارات دراسة واعية متعمقة تبلغ بها مداها في الكشـف عـن الحقائق المحيطة بالموقف مـن جميـع جوانبـه ، وعلى ضوء هـذه الدراسـة تتخذ القـرارات في المعارك التي يرتبط بها مسـتقبل المجتمع ، ثـم يعقبها التنفيذ دون تـردد مهما كانـت العواقب ، والنبي ﷺ بوصفه نبيًا رسـولًا ، وقائدًا لمجتمعه في حربه وسـلمه كان قد درس مع أصحابه الموقف دراسـة وافية واستشـارهم فيه ، وأخبرهم برؤياه وما أولهـا به ، وأخبرهم أنه بمقتضى وحي الرؤيا التي رآها في منامه ورؤيا الأنبياء وحي -يرى أن يمكثوا بالمدينة ، فإن دخل عليهم عدوهم قاتلوه في أزقتها وفجاجها ومن أسطح بيوتها ، ولا يخرجوا منها لملاقاة خارجها .

فخالفـه الذيـن لم يشـهدوا بـدرًا ، وسـمعوا بفضلهـا وفضل شـهودها ، وأرادوا مخلصيـن مع عواطفهم أن يكـون لهم من هذه الغزوة التي حضرتهم ، وجاءهم فيها العدو إلى بلدهم لمهاجمتهم عوضًا عما فاتهم من فضل بدر ، وتهيأ رسول الله ﷺ للقتال خارج المدينة عملًا بمقتضى رؤياه المنامية ، ولبس أداة الحرب وخطب

الناس وحرضهم على القتال، وحثهم على الصبر والجد، وتهيأ الناس للخروج، وفرح الذين كانوا يرونه أمنية ساقها الله إليهم، ولكنهم وجدوا من بعض الأكابر من ندّمهم على ما كان منهم من استكراه رسول الله ﷺ على الخروج وهو أعلم بالله وما يريد، ينزل عليه الوحي من السماء فندموا وردوا الأمر إليه ﷺ وقالوا معتذرين: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما تريد.

ولكنه ﷺ أبى عليهم أن يرجع عن عزيمته وإصراره على الخروج لملاقاة عدوه خارج المدينة، وقد كان في هذا الرد الحازم تعليم لهم أن لا ينساقوا مع عواطفهم في مواقف تتعلق بمستقبل الدعوة إلى الله، وأخبرهم ﷺ بما أشعرهم بأن النفوس تهيأت للخروج ومواجهة العدو خارج المدينة، فردُّها عن عزيمتها إضعاف لقوتها وتوهين لإرادتها وتثبيط لعزائمها، وإن من سنن النبوة في قيادة المعارك الجهادية لإعلاء كلمة الله أن لا ترجع إذا توجهت، وأن لا تتوقف إذا صممت، وأن لا تتردد إذا عزمت، وأن لا تنقض ما أبرمت، وأن لا تجادل إذا درست، وأن لا تخشى اللوم إذا شاورت، وأن لا تظهر أمام أعدائها بمظهر المتراجع قبل أن يحكم الله بينها وبين أعدائها في معمعة الحرب.

عتاب أهل بدر على مخالفتهم نموذج لما ينبغي أن يكون عليه الجنود من الطاعة المطلقة لقيادتهم العليا:

وإذا كان أهل بدر عوتبوا على مخالفاتهم لخطط القيادة العليا للمجتمع المسلم، وأوامر هذه القيادة المتلقاة من الوحي مباشرة أو عن طريق تصويب الاجتهاد أو التنبيه على ما عسى أن يقع فيه

من الخطأ غير المقصود، واقتحام المجاهدين ما لم تأمر به القيادة العليا الحكيمة ولم ترضه منهجًا لها -فغيرهم أحق وأولى.

وهذه المخالفات البدرية تتمثل في:

أولا: كراهية فريق من المؤمنين المجاهدين الخروج للقاء عدوهم ومقاتلته، وهو قد قدم في عدته وعدده لمهاجمتهم بقصد استئصال المجتمع المسلم في تركيبه الاجتماعي التكافلي الجديد، وفضلوا على هذا اللقاء القتالي المضي وراء العير وغنم ما فيها من أموال ومتاع لقلة حاميتها وسهولة أخذها، بعد أن فاتتهم، ونجا بها أميرها أبو سفيان بن حرب، وقد حكى الله ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿ كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴾ (الأنفال: ٥، ٦)

وقد فسرنا الآية في موضعها المناسب، وبينا ما فيها من هذا المعنى مستشهدين بحديث أبي أيوب عند الترمذي الذي سقناه أكثر من مرة لتطلب المناسبة لهذا المساق.

وقد جاء في هذا الحديث قول بعض الصحابة -رضي الله عنهم- والنبي ﷺ يشاورهم ويقول لهم: «ما رأيكم في لقاء القوم؟» بعد أن ذهبت العير ناجية إلى مكة: لا طاقة لنا بقتال القوم، عليك يا رسول الله بالعير، فإنها ليس دونها أحد، فيزيدهم الله تعالى في معاتبته لهم شدة -ويذكرهم أن أخذ العير أو لقاء النفير وعد صادق من الله لا يتخلف، وقد فاتتكم العير، فلم يبق لكم إلا ملاقاة النفير ينبغي لكم أن تخرجوا لملاقاته فهو أعظم فائدة لكم من

العيـر ؛ لأنه برجالـه وغنائمه قد صـار موضع تحقيـق الوعد ، فلا تتهيبوا ما فيه من قوة عددية في الرجال وقوة عتادية في الأسـلحة والأموال ، فإنكم سـتغنمونها وتقتلون صناديد أعدائكم وتأسرون أشـرافهم ، وتشـردون فلالهـم ، وتفزعون فرارهـم ، تحقيقًا لوعد الله الـذي لا يتخلـف فقال لهم عز شـأنه : ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ ﴾ -العير أو النفير- ﴿ أَنَّهَا لَكُمْ ﴾ (الأنفال : ٧) .

وقد تعين هذا الوعد في النفير بعد فوات العير ، ولكنكم تهيبتم لقـاءه وغفلتم عـن وعد الله لكـم ، وارتبطت همتكـم وعزائمكم بالتطلع إلى العير لسـهولة أخذها وما فيها من عرض الدنيا ؛ لأنها ضعيفة الشـوكة قليلة الحامية ، فوددتموها لذلك كما أخبر الله في قوله جل شأنه :

﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ ﴾ -أي العير- ﴿ تَكُونُ لَكُمْ ﴾ (الأنفال : ٧)

لمـا فيها من الأمـوال ، التي ليس لها قوة كافيـة للدفاع عنها ، ولا تحقق لكم إلا غرضًا شـخصيًا هـو الحصول على عرض الدنيا الزائل الفاني ونسـيتم أن لقاء النفير والظفر به يحقق إرادة الله في إعزازكم ، وإذلال عدوكم ونصركم عليه ، وهزيمته أمامكم ، وهذا معنى قول الله تعالى : ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الأنفال : ٧)

ليثبت الحق في مغارزه ، ويزيل الباطل عن منازله .

ثانيًا : مخالفة أهل بدر في تعجلهم إنهاء المعركة بمجرد ظهور بـوادر النصر الذي لم يكن متوقعًـا عندهم ولا كان يمر بخيالهم ،

وإقبالهـم على عـرض الدنيا والاشـتغال بجمع الغنائم واسـتبقاء الرجـال لأخذهم أسـرى قبل الإثخان في الأرض، لإضعاف شـوكة العـدو بتكثيـر القتـل في رجالـه وصناديـده وأشـراف جاهليته، والمبالغة في جراحاته لتوهين قوته، فقال لهم منتقلًا عن أسـلوب الغيبـة في إخبار النبي ﷺ بأنه ما كان من شـأنه في نبوته ولا كان ممـا يمكن أن يقع منه أن يكون له أسـرى قبل أن يثخن في الأرض بإشـباع سـيوف مجاهدي كتائبه من أعناق الكافريـن المحاربين لـه الذين يريـدون القضاء على دعوته ومجتمعـه، قبل أن يبلغ في جراحاتهم ما يعجزهم عن مواقفة المؤمنين المجاهدين في سـبيل إعـلاء كلمـة الله -إلى أسـلوب المواجهـة بالخطـاب معاتبًا لهم علـى ما كان منهم من مخالفة القيـادة العليا في خططها، يريدون بهـذه المخالفة عرض الدنيا الزائـل، معرضين عن الآخرة وثوابها ونعيمها المقيـم: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٦٧)

ومعنى هذا الأسلوب -الذي أوضحناه في الحديث عن وقعة بدر التي هي موضع النص، ونعيد بعضه هنا تأكيدًا لإظهار الترابط بين بـدر وأحـد- (ما كان لنبي) الذي أخبر بـه النبي ﷺ إعلامًا له بما كان عليه الأنبياء قبله من شأن وحال وهو خاتمهم وجامع فضائلهم -نفـي أن يقع منه ذلك كما هـو منفي عن إخوانه الأنبياء وتنزيه له عن الاتصاف به، فهو أسلوب نفي وتنزيه لا أسلوب نهي صريح ولا ضمني -كما صرح به أبو حيان في تفسيره- فهو في الحقيقة مدح وثناء افتتح به عتاب الذين كانوا سببًا لكينونة ما لا ينبغي أن يكون والمخالفة الأولى لأهل بـدر، وهي كراهية فريق منهم الخروج إلى

لقاء النفير ومقاتلتهم، كانت في مقدمات المعركة قبل نشوبها والمخالفة الثانية كانت في نهاية المعركة وتصفيتها.

التشابه بين مخالفات بدر وأحد واختلاف النتائج:

بيد أن أهل أحد عوقبوا على مخالفاتهم أوامر القيادة العليا، فتعرضوا لفتنة الهزيمة والقتل والذهول عن مواقفهم حتى صار بعضهم يقتل بعضًا دون قصد ومعرفة من شدة ما انتابهم من الفوضى والدهش، مما أدى إلى فرار جمهورهم عن النبي ﷺ حتى تعرض لأشد البلاء وأقسى المحن، فقد أصيب ﷺ بأبلغ الجراحات ودمي وجهه الشريف، وكسرت رباعيته، ودخلت حلق المغفر في وجنته الطاهرة(٩)، ووقع في حفرة مما كادهم بها أبو عامر الفاسق، فلم يستطع النهوض للخروج منها حتى أنهضه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه لأنهم خالفوا وحي الرؤيا وكما كانت المخالفة الأولى لأهل بدر في مقدمات المعركة قبل نشوبها كانت المخالفة الأولى لأهل أحد في مقدمة المعركة قبل احتدامها، غير أن مخالفة أهل أحد الأولى كانت على عكس مخالفة أهل بدر الأولى، لأن مخالفة أهل بدر كانت كراهية فريق منهم لقاء العدو وتهيب قتاله لقلة عددهم وضعف عدتهم، وكثرة العدو وقوة عتاده.

وأما مخالفة أهل أحد فكانت ممثلة في شدة حرصهم على الخروج إلى العدو ومقاتلته خارج المدينة لإعلاء كلمة الله، ولكن منهج الرسالة لا يقر مخالفة القيادة العليا على أية صورة كانت تلك المخالفة، لا سيما أن القائد الأعلى في المعركة هو رسول

---

(٩) المِغْفَر: ما يلبسه المقاتل على رأسه لوقايتها. (المجلة)

الله ﷺ الـذي تجب طاعته نبيًا ورسـولا وقائـدًا دون نظر إلى جهة المخالفة، وكان رسـول الله ﷺ قد أخبرهـم برؤياه وهي وحي من عند الله يقتضي وجوب متابعتـه وطاعته وتجنيب العواطف وعدم الالتفات إليها، لأن النبي ﷺ أعلم بالله بما يريد من كل أحد منهم، وقـد أبدى لهم في تأويل رؤياه دوافع عدم الخروج من المدينة وأن القتال في فجاجها أضمن لنصر المؤمنين.

إعداد الناس للخروج إلى المعركة في أحد وعقد الألوية:

وبدأ رسـول الله ﷺ يهيئ الناس للمعركة خارج المدينة حفاظًا علـى الوحدة الإيمانية للمجتمع المسـلم، فعقد ثلاثة ألوية: لواء للأوس جعله بيد أسـيد بن حضير، ولواء للخزرج جعله بيد سـعد بـن عبـادة، ولـواء للمهاجرين أعطـاه علي بن أبـي طالب، وكان رسـول الله ﷺ قد سـأل عمن يحمل لواء المشـركين فقيل له إنه بيد طلحة بن أبي طلحة العبدري، فقال رسول الله ﷺ: «نحن أحق بالوفـاء منهم» فأخـذه من علي ودفعه إلى مصعـب بن عمير، لأنه مـن بني عبد الدار بن قصي، وكان عبد الدار بكر قصي فجعل إليه اللـواء والحجابة والسـقاية والرفادة، وكان قصـي مطاعًا في قومه لا يـرد عليه شـيء صنعه، فجرى ذلـك في عبد الـدار وبنيه حتى قام الإسـلام، فإلى هذا أشـار ﷺ بقوله: «نحن أحق بالوفاء منهم» يعنـي الوفاء بعهد قصي في جعل اللـواء في بني عبد الدار، وخرج ﷺ يمشـي على رجليه، وفي رواية أنه كان راكبًا فرسـه السكب، والناس حوله يحفون به عن يمينه وعن شـماله، وأقام على الحرس محمد بن مسـلمة، وقيل ذكـوان بن عبد قيس وخرج السـعدان:

سعد بن معاذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة سيد الخزرج يعدوان بين يدي رسول الله ﷺ حتى بلغ الركب ثنية الوداع -وإذا رسول الله ﷺ بكتيبة خشناء لها زجل بأصواتها الصاخبة المدوية فسأل عنها فقال: «من هؤلاء؟» فقال له أصحابه: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي في ست مئة من مواليد اليهود فقال ﷺ: «وقد أسلموا؟» قالوا: لا يا رسول الله قال ﷺ: «مروهم فليرجعوا، فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» وعند ابن سعد «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك» وهي أنسب لما فيها من وضع مبدأ عام للمجتمع المسلم في مستقبله، وهذا الحديث أخرجه الطبراني في معجميه الكبير والأوسط برجال ثقات عن أبي حميد الساعدي، وقد أطلق النبي ﷺ على هؤلاء اليهود اسم المشركين وفي هذا الإطلاق دلالة على أنهم كانوا غير المنافقين من شيعة عبد الله بن أبي الذين خرجوا معه، ثم انخزلوا عن جيش المسلمين قبيل نشوب المعركة لأن المنافقين لم يطلق عليهم اسم مشركين، وإن كانوا أشد كفرًا وخبثًا من المشركين.

وفي رواية عن الزهري أن الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم» ومعنى هذا الاختلاف بين الروايات أن الأنصار رأوا من مواليهم اليهود رغبة لم يدركوا ما فيها من مكر في أن يخرجوا معهم لقتال مشركي مكة وألفافها ومرتزقتها الذين استأجرهم أبو سفيان بأموال عير قريش، فلم يعارضوهم، ورأى اليهود بخبثهم أن هذه فرصة فليهتبلوها ليكيدوا المسلمين في ميدان المعركة كيدًا خبيثًا لا يعلم عواقبه الوخيمة إلا الله تعالى، فتأهبوا للخروج

وأعـدوا له عدتهـم وكوّنوا كتيبتهم الخشـناء بقوة حسـبوا فيها للمسـتقبل القريب والبعيد حسابه، وخرجوا ولهم زجل وأصوات صاخبة لا يدرى مصدرها في نفوسـهم، ورأى الأنصار بحسـن نية وضمير مخلص طاهر أن يستأذنوا النبي ﷺ في السماح لمواليهم اليهود أن يخرجوا معهم ليحاربوا مشـركي مكة القادمين بعدتهم وعددهم لمحاربة المجتمع المسلم وليثأروا لقتلاهم في بدر.

ولكن النبي ﷺ إذ رأى اليهود سـأل عنهـم فأخبروه خبرهم، فاسـتأذنوه لهم فأبى ﷺ ورد اسـتئذان الأنصار بأسـلوب سياسي محكم فقال لهم: «من هؤلاء؟» فقالوا: هؤلاء حلفاء عبد الله بن أبي في ست مئة من مواليه اليهود فقال رسول الله ﷺ: «وقد أسلموا؟» فقال الصحابة: لا يا رسـول الله، فقال: «مروهم فليرجعوا، فإنا لا نسـتعين بالمشركين على المشـركين» وقد قدمنا رواية ابن سعد بلفظ: «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك».

والمقصـد من ذلـك أن ينبه رسـول الله ﷺ مجتمعه المسـلم إلـى لون مـن الحذر في حياتـه المليئة بالمفاجآت ولـدد العداوة، فلا يسـتقيم لهذا المجتمع المسـلم أن يأمـن كل من لم يكن معه فـي وحدة الإيمان والعقيدة أن يداخله ويعرف أسـراره في معاركه الجهادية التي يقاتل فيها لإعلاء كلمة الله.

مبدأ عدم الركون إلى أعداء الإسلام في الاستنصار بهم:

وهذا سـبب عام في عدم الركون إلى أعداء الإسلام والاستعانة بهم، وهو من أهم دعائم منهج الرسالة الخالدة وأقوى حصونها التي تحميها

مــن المفاجآت الغادرة التي يديرها أعداء هذا المجتمع المســلم لوقف مسيرته بل للقضاء عليه. وقد حرص القرآن الكريم على تنبيه المسلمين إلى ما في إغفال هذا الســبب من خطر على الإســلام والمسلمين، كما يــؤذن بذلــك الكثير من الآيات المحذرة في صراحــة لا تحتمل التأويل والتردد والاحتيال على النصوص لوضعها في غير موضعها.

ولــو لم يكــن في ذلــك إلا قولــه تعالــى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾ (الممتحنة: ١)

وأي إلقــاء بالمودة أكثر من أن يســتعينوا بهــم ويداخلوهم في معاركهــم الجهادية، ويعرفوا أســرارهم ويقفوا على مقادير قواهم الماديــة في حروبهم وطرائق تدبيرهم وأســاليب قتالهم. وأصرح من هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡ ﴾ (المائدة: ٥١)

وقولــه جــل شــأنه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُ ﴾ (آل عمران: ١١٨)

وهنــاك وراء هــذا الســبب فــي عــدم الركــون إلى المشــركين وائتمانهــم على مصالح المجتمع المســلم- أســباب خاصة تؤكد وجــوب مباعدة كل مخالف فــي الدين والعقيدة، وهذه الأســباب تغطيها السياسة الماكرة وتكشفها المعاملة الباغية.

وننبه إلى أن هذه المباعدة لأعداء الإسلام والمسلمين لا يدخل فيها سوء المعاملة في العشرة الدنيوية؛ لأن الله -تعالى- يقول للمؤمنين: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾

(الممتحنة: ٨)

وسوابق اليهود في الغدر والخيانة ونقض العهود، وسوء الكيد للمسلمين والمكر بهم، والتحريض على حربهم لا سيما بعد انتصارهم في وقعة بدر التي كشفت عن ذات صدورهم معلومة. ولعل هذه السوابق تمثلت لرسول الله ﷺ فرأى فيها كل سوء فأبى أن يقبلهم في حشد كتائبه، وأمر بهم أن يرجعوا واكتفى في تنبيه أصحابه بذكر السبب العام الذي يوجب أن لا يقبلوهم معهم في صفوفهم لمحاربة المشركين، وأن لا يستعينوا بهم على المشركين؛ لأنهم أقرب إليهم في الكفر وعداوة الإسلام والمسلمين.

وكان مجموع من خرج مع رسول الله ﷺ بعد المشاورة والانتهاء إلى الخروج عن المدينة ألف رجل بما فيهم شيعة عبد الله بن أبي رأس النفاق والمنافقين وكانوا ثلاث مئة رجل، وسار الركب حتى بلغ مكانًا يقال له الشوط بين المدينة وأحد، وعند ابن سعد -انتهى إلى أحد- إلى موضع القنطرة اليوم.

انخزال ابن أُبيٍّ بثلث الجيش سياسية مبيتة بين اليهود والمنافقين:

وانخزل ابن أُبيٍّ من ذلك المكان، وقال ابن أُبيٍّ يعتذر عن انخزاله - وهو كاذب -: عصاني - يقصد رسول الله ﷺ - وأطاع الولدان ومن لا رأي له فعلامَ نقتل أنفسنا؟ فتبعهم عبد الله بن حرام والد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وكان خزرجيًا من قوم ابن أبي نسبًا، فقال للمنخزلين ولم يكن على علم بنفاقهم: أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم بعد ما حضر عدوهم، فقالوا له كاذبين: لو نعلم أنكم تقاتلون لما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال، ومضوا مدحورين مخذولين وأبوا أن يستجيبوا لعبد الله بن حرام، فقال لهم لما يئس منهم: أبعدكم الله يا أعداء الله فسيغني الله نبيه عنكم.

أثر انخزال المنافقين في كتائب المسلمين وما أحدثه من البلبلة:

وقد ذكر الله قصة هؤلاء المنافقين في انخزالهم وخذلانهم يفضحهم ويكشف نفاقهم وجبنهم في قوله -تعالى- خطابًا للمؤمنين يسليهم عن انخزال أولئك المخذولين، ويربط على قلوبهم بروابط الإيمان، ويثبت أقدامهم بعزائم الجهاد: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا

﴿لَّاتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴾.

(آل عمران: ١٦٦، ١٦٧)

وقد كان لهذا الانخزال المخذول أثره السيئ الذي قصده المنافقون من تثبيط عزائم المؤمنين وإدخال الخور في قلوبهم، قال موسى بن عقبة في مغازيه وسيرته: فلما انخزل ابن أبي بمن معه سُقط في أيدي طائفتين من المسلمين وهمّا أن يقتتلا، وهما بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس، وفي صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: فينا نزلت ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال جابر: نحن الطائفتان بنو حارثة، وبنو سلمة، وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ قال الحافظ ابن حجر: أي إن الآية وإن كانت في ظاهرها غض منهم لكن في آخرها غاية الشرف لهم، وقال ابن إسحاق: قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ أي الدافع عنهما ما هموا به من الفشل لأن ذلك كان من وسوسة الشيطان من غير وهن منهم في دينهم.

قال القرطبي: والهم من الطائفتين كان بعد الخروج لما رجع عبد الله ابن أبي بمن معه من المنافقين فحفظ الله قلوبهم فلم يرجعوا، فذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ يعني حافظ قلوبهما عن تحقيق هذا الهم. وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن زيد: لما خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة أحد ورجع ناس ممن خرج معه وكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة

تقول : لا نقاتلهم : فنزل ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ . (النساء : ٨٨)

وهذا الحديث أخرجه مسلم من حديث زيد بن ثابت وأخرجه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح ، قال القرطبي : والمعني بالمنافقين هنا عبد الله بن أبى وأصحابه الذين خذلوا رسول الله ﷺ يوم أحد ، ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا .

ولا شك عندنا أن هذا الموقف المخذول الخبيث من رأس المنافقين عبد الله بن أبي وشيعته من خبثاء النفاق وربائب اليهود كان موقفًا مبيتًا مدروسًا في تآمر خبيث بين المنافقين وأوليائهم من اليهود ، أرادوا به المكر السيئ بالمجتمع المسلم والكيد له ليحدثوا في صفوفه البلبلة والاضطراب واختلاف الكلمة ، لأن هؤلاء المنافقين خرجوا بزعامة رأس النفاق عبد الله بن أبي ابن سلول مع حشد المسلمين حتى بلغ الركب إلى أقرب موضع لنشوب القتال ، والمسلمون يرون أن ابن أبي ومن معه من شرذمة النفاق سيقاتلون معهم ، وأنهم جند من معسكرهم ، قد وضعوهم في حسابهم وخطتهم الحربية ، حتى إذا حضر القتال انخزل هذا الخبيث ابن أبي المنافق بمن معه من المنافقين عن جيش المسلمين ، فكشفوا أحد جناحيه ، والأعداء يرونهم في انخزالهم مما أطمعهم في جيش المسلمين ، وقللهم في أعينهم وجرأهم عليهم ، ولو لم يكن هناك مكر مبيت بين اليهود والمنافقين رسموا فيه خطة غدر بالمسلمين فلِمَ لم يقعد المنافقون بزعامة رأس النفاق ابن أبي عن السير مع حشد المسلمين قبل أن يخرجوا إلى عدوهم ، وهذا الخروج كان ضد رأي ابن أبي ، وكان عذره

الـذي انتحلـه - كاذبًا - قائمًـا قبل الخـروج؟ وإذا انضم إلى هذا الموقـف الانخزالـي المخـذول موقف الغـدر الخبيث مـن كتيبة اليهود الخشـناء التي خرجت دون علـم بخروجها من النبي ﷺ، متظاهريـن بأنهـم يشـدون عضـد المسـلمين بالقتـال معهم في صفهم، وكانوا سـت مئـة دارع، فردهم رسـول الله ﷺ فور علمه بخروجهـم وأنهم مقيمون على كفرهم وشـركهم، وأبى أن يقبل منهـم ادعاءهم الباطل، وقـال لأصحابه: «مروهم فليرجعوا فإنا لا نسـتعين بالمشركين على المشركين» ولم يأمنهم على البقاء بين حشد المسلمين ورواية ابن سعد «لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك».

إذا تأملنا الموقف على هـذه الصورة وجمعنا موقف المنافقين الخبثـاء الغادريـن إلـى موقف اليهود ظهـر جليًا أن هـذا الموقف الخبيـث من الطائفتين اليهود والمنافقين أنه كان كيدًا مدسوسًـا على المسـلمين، وكان رجوع كتيبة اليهود الخشـناء قبل انخزال ابن أبي وشـيعته من المنافقين هو الدليل على ما أخفوه من الكيد للمسلمين.

كان رسول الله ﷺ على أتم العلم بغدر اليهود وخيانة المنافقين:

ولـم يغب عـن تقديـر رسـول الله ﷺ ووزنه للأمـور أن هؤلاء وهـؤلاء أعـدى أعداء الإسـلام ومجتمعه، وأنهم لـو خرجوا فيهم مـا زادوهم إلا خبالًا، ولأوضعوا خلالهم يبغونهم الفتنة والفشـل، فلذلك رد ﷺ كتيبة اليهود ولـم يعبأ بانخزال ابن أبي وشـعيته من

أهل النفاق، ويقول القسطلاني في المواهب: ويقال: إن رسول الله ﷺ أمرهم - أي ابن أبي وشيعته أخابث المنافقين - بالانصراف لكفرهم. وهذا القول جدير بصيغة التمريض والضعف التي ساقه بها القسطلاني، لا سيما أن تعليل هذا الأمر بالانصراف بالكفر بعيد لأن المنافقين وهم أخبث طوائف الكفر والإلحاد لم يعهد إطلاق الكفر عليهم، والقرآن الكريم غاير بينهم وبين عموم الكافرين في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التوبة: ٧٣).

فعطفهم بوصفهم الخاص، وصف النفاق على الكفار، وهذا التعبير قد تكرر في القرآن لمقتضيات مناسباته.

وقد حاول الزرقاني في شرحه أن يجعل لهذا القول وضعًا في التأويل لما نقله عن بعضهم من الجواب عن التنظير فيه فقال: إن المعنى - أي في قوله: (أمرهم بالانصراف) أنه أمر بالكف عنهم وردهم إلى جيش المسلمين، ونهي عن طلب رجوعهم، فكأنه أمرهم بالانصراف حقيقة. ومع هذه المحاولة من شارح المواهب فإنه لم يأخذ مكانه في التأويل بل وصمه بالتعسف والجمع بين الأمر والنهي.

ولم يرد النبي ﷺ عبد الله بن أبي وشيعته من أخابث المنافقين كما رد كتيبة اليهود الخشناء لأن اليهود مشركون يعرف شركهم وغلظ كفرهم وسوء عداوتهم للنبي ﷺ ودعوته ورسالته، وما ركب في طبعهم من حب الغدر والخيانة ونقض العهود وتدبير المكايد للمسلمين.

وقد سجل الله تعالى سوء ما انطوت عليه جوانحهم من الحقد والحسد والضغن في سورة البقرة وهي أول سورة نزلت بالمدينة، واليهود فيها متوافرون عددًا وأموالًا وحصونًا ومزارع وتجارات، ففضحتهم وكشفت أسرارهم وسرائرهم فقال تعالى:

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ (البقرة: ١٠٩)

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٠)

* * *

وأما المنافقون فلم يكن العلم باستبطانهم الكفر وسوء الكيد للإسلام والمسلمين شائعًا بين المجتمع المسلم بالنسبة لأفرادهم، وكان تستر النبي ﷺ عليهم وعدم أخذهم بما يصدر عنهم من جرائم وآثام، ومعاملتهم في الظاهر معاملة المسلمين، وإخباره أصحابه بحكمة ترك قتل من يستحق منهم القتل في غير حد بأنهم يصلون مع المسلمين، وبأنه قتلهم مع تظاهرهم بالإسلام مما يساء تأويله لمن لم يعرف سياسة الإسلام في معاملة فئات الناس، فيقولون إن محمدًا يقتل أصحابه أخذًا بظاهر حالهم ومداخلتهم للمجتمع المسلم في صلواته وجوامع أمره، وهذا مما يعوق سير الدعوة والإقبال عليها.

فلهذا بادر النبي ﷺ برد كتيبة اليهود، ولم يرض أن يكونوا في صفوف جيشه لأنهم مشركون، ولا ينبغي للمجتمع المسلم

أن يستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك لأنهم غير مأمونين على نصرة الإسلام والمسلمين، لا سيما أنه كانت لليهود بالمدينة في صدر الهجرة شوكة وقوة مادية يحسب حسابها ويخشى غدرها، ولم تكن للمنافقين شوكة يخشى من عواقبها لأنهم عرفوا بالجبن والتستر وراء أستار ظلام النفاق، فخطرهم ضعيف لا يقام له وزن ولا يعمل له حساب، وقد دمغهم الله بذلك في قوله جل شأنه:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (التوبة: ٥٦، ٥٧).

على أن بعضهم كان معروفًا لدى النبي ﷺ وأكابر أصحابه، وكانوا يعيشون بين المجتمع المسلم كما تعيش الطفيليات المفسدة للزروع والثمار، وكان المجتمع المسلم يداريهم لضعف وزنهم واتقاء شرهم في الأراجيف وإشاعة السوء، وإغضاء عن شرورهم بإهمالهم حفظًا لوحدة المجتمع المسلم لأنه كان في أقوامهم من تحمله العصبية القومية على الغضب لهم وإثارة الفتنة عصبية لقوميتهم.

ويؤكد ذلك نزول آية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ﴾ (النساء: ٨٨).

عند انخزال ابن أبي وشيعته واختلاف المسلمين في شأنهم إلى فئتين، فئة تقول: نقاتلهم، والأخرى تقول: لا نقاتلهم.

بعد انخزال ابن أبي بثلث مَن خرج مع رسول الله ﷺ إلى قتال عدوه وكانوا ثلاث مئة بقي جيش المسلمين في سبع مئة مقاتل

معهم مئة درع وفرس أو فرسان، وكان هؤلاء هم خلاصة صفوة المجاهدين، فصفهم رسول الله ﷺ وعدل صفوفهم وهو يرى أعداءه، وأعداؤه يرونه، وجعل على الحرس محمد بن مسلمة في خمسين رجلا، خشية غدر المشركين.

أوامر رسول الله ﷺ للرماة ووعظه لهم:

وأقبل ﷺ عليه أداة الحرب درعان ظاهر بينهما ومغفر وبيضة[١٠]، وجعل أحدًا ظهره مستقبلا المدينة، وجعل عينين - جبل قريب من أحد - عن يساره وأقام عليه الرماة، وكانوا خمسين رجلا أميرهم عبد الله بن جبير، فوعظهم محذرا منذرًا، وأوصاهم فقال لهم: «قوموا على مصافكم هذه واحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا».

وفي صحيح البخاري أنه ﷺ قال لهم: «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا من مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم» وعند ابن إسحاق: «انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا» وفى رواية «وارشقوهم بالنبل، فإن الخيل لا تقوم على النبل، إنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم».

ولا بد لنا من وقفة أمام هذه الوصايا الحكيمة الصريحة الحازمة القوية البالغة في قوتها مبلغ أعمق ما يمكن أن يوصي به قائد جنده وهو على نفس المعركة لكتيبة من جيشه، عقد بنواصيها

(١٠) الدرع ما يلبسه المقاتل لوقاية صدره والمغفر ما يلبسه لوقاية رأسه والبيضة ما يلبسه لوقاية رأسه وعنقه. (المجلة)

النصـر المؤزر إن هي وعت الوصيـة وصبرت وصابرت، ولم تهتز قناتهـا، أو الهزيمة المدمرة إن هي تخلخلـت في موقفها فلم تقوَ علـى تحمل مرارة الصبر والمصابرة واسـتزلهم الشـيطان بتزيين الدنيا لهم.

تلك هي طائفة الرماة وكتيبة حامية جيش المسـلمين أن يؤتى من خلفه في هجوم خاطف يفقده نظامه العسـكري، ويفسد عليه خطتـه للمعركـة، ويتبدد تدبيـره الذي أحكم وضعه على أسـاس وضع الرماة وموقفهم في تنفيذ ما كلفوه من الثبات في أماكنهم.

ونحـن وإن كنـا لسـنا مـن أهـل العلـم الحربـي، والسياسـة العسـكرية، ولا مـن ذوي الخبـرة بخصائـص المواقـف الحربية ومـا ينبغي فيها من تحركات الجيوش وكتائـب المحاربين، لكنا نقرأ ونحـاول أن نفهم ما نقرأ، وقد نسـتعين بمباحثة أهل الدربة والتجربة من فنيي الحرب ورسومها العسكرية.

وللحروب كتـب ووثائق تتحدث بإفاضة عـن الوقائع الحربية فـي القديم والحديـث، والمتحدثـون فيها مـن المتخصصين في فـن القيـادات الحربية الذين يرسـمون خطـط المعـارك الحربية على مقتضى طبيعة الحياة والأرض والأسـلحة والقوة البشرية وما وصلت أو ما يجب أن تصل إليه من تدريب وخبرة، ومعرفة موقف الأعداء من هذا كله وتقدير ما يجري من خداع في الخطط المعلنة وغير المعلنة.

وقد اسـتفدنا مما قرأناه في هذه الكتب والوثائق التي سـمحت بنشـرها المواقف التاريخية أن سـلاح الرمي - وهو في الاصطلاح الحديث للحروب سـلاح الطيران في عمومه، وسلاح القاذفات في

خصوصه - هو أهم أسلحة الحرب ؛ لأن هذا السلاح قد يوجه ضربة قاضية تحت ستار خدعة مدبرة إلى جيش أعدائه فيشل بها حركته، بل قد يقضي عليه وعلى كثير من أسلحته الزاحفة، سواء أكانت هجومية أو دفاعية وتحل الهزيمة هنا، وتخفق ألوية النصر هناك.

ومن ثم كانت الأهمية البالغة للوصية التي خص بها النبي ﷺ بوصفه قائدًا عسكريًا كتيبة الرماة في غزوة أحد ؛ لأن جو المعركة في هذه الغزوة كان يتطلب إعداد سلاح الرمي، وإعداد كتيبته من المتخصصين في استعمال هذا السلاح، كما كان جو المعركة يتطلب التوجه إلى كتيبة سلاح الرمي بأوامر قيادية خاصة بالرماة، توجه إليهم في صور وأساليب منذرة محذرة.

فالنبي ﷺ إذا تحدث إلى فرقة الرماة - بعد أن وضعهم في مكان الحماية لظهر الجيش - إنما يتحدث بهذه الأوامر والوصايا الحكيمة الحازمة الصارمة إليهم بوصفه القائد الأعظم للمعركة.

وقد أعلمهم في وصاياه بصراحة لا تحتمل التأويل بما لا يكون للعلم الموثق والمعرفة المؤكدة سبيل وراء ما أوصاهم به، وحذرهم من مغبة مخالفته، ملقيا على استجابتهم أو عدم استجابتهم عبء المعركة، ومحملا لهم نتائجها في النصر أو الهزيمة.

ولم يترك ﷺ تعبيرًا في أسلوب القيادات الحربية المحذرة إلا حدثهم به في أوامره ووصاياه، وأراهم منافع المحافظة على هذه الأوامر والوصايا، وبين لهم مضار ووخامة التهاون والغفلة عنها، وعرفهم مكانتهم ووزنهم الخطير في موقفهم لحماية ظهر الجيش ؛ لأن الجيش الذي تحمي ظهره قوة يثق بها، ويطمئن إلى يقظتها

وحرصها عليه يجعل ثقله كله في حملته على بؤرة جيش أعدائه.

عبارات التحذير للرماة كانت واضحة في قوتها وصرامتها:

ومن أجل هذه الأهمية العظمى لهذه الحماية أبرزها القائد الأعظم محمد ﷺ في أسلوب القيادة الحازمة والأوامر الحربية الصارمة، وصاغها في عبارات تكاد تكون معجزة في معانيها ومراميها، وإن كانت قد جاءت في سهولة بيانها وسماحة تعبيرها من قبيل الأحاديث المرسلة في معالم الحياة، خالية من الغموض والتعقيد حتى لا تترك مجالا للتأويل والتحريف، ولو لم يكن فيها إلا قوله (ﷺ : إنا لا نزال غالبين ما ثبتم مكانكم، اللهم إني أشهدك عليهم) لكفى لمن كان له قلب لا تستهويه الدنيا بزخارفها.

هذه الوصايا والأوامر نضعها بين يدي أهل الاختصاص من قادة الحروب وساسة المعارك لأنهم هم أهلها وأحق الباحثين بالنظر فيها وبيان مقاصدها وأهدافها، حتى يتبين من دراستها فنيًا مدى مبلغ رسول الله ﷺ من العلم في سياسة معاركه، فوق إنافته على المستوى القيادي في معركة أقدار فئات الكتائب المحاربة وفرق الجيش، والأسلحة التي تتجهز بها كل فرقة في حدود اختصاصها في كل موقعة على مقتضى وضعها الجغرافي والسياسي والعسكري.

ونحن لا نستطيع أن نصدر أحكامًا في الأمور الفنية الاختصاصية التي يقصر إدراكنا الدراسي عن فهم مداخلها وأسرارها.

بيد أننا نبادر إلى القول بأننا لم نر في مطالعاتنا وقراءاتنا من زعم أن شيئًا من الإعجاز قاد زمام هذه المعركة، بل إنها كانت

تدار بمحض القوة الفكرية التي أوتيها رسول الله ﷺ بوصفه قائدًا عسكريًا وسياسيًا حربيًا، ومن هنا كانت هذه الواقعة بشرية في مباديها ونهاياتها.

وصل النبي ﷺ إلى مشارف أحد ومعه أصحابه الذين خرجوا معه للمعركة، وتراءى الجمعان، جمع المسلمين الذين أخذ رسول الله ﷺ في تعبئتهم وتسوية صفوفهم، ورأى في الجيش عددًا من الشباب الذين لم يبلغوا سن الجهاد والصبر على عض السيوف، فرد - كما يقول الإمام الشافعي - سبعة عشر شابًا كانوا في حدود الرابعة عشرة سنة، رحمة بهم وإشفاقًا عليهم، فلما استدار بهم الزمان أجازهم في العام المقبل، وكان هؤلاء الشباب في جمهرتهم نخبة ممن حملوا في مستقبل حياتهم لواء العلم بالسنة وقيادة الجيوش في الجهاد لإعلاء كلمة الله ونشر راية التوحيد، وكتابة الوحي ورسائل رسول الله ﷺ إلى الملوك والأقيال(١١) والفتوى والرواية عن رسول الله ﷺ وعن أكابر أصحابه.

وكان في مقدمة هؤلاء الأشبال من خلص شباب الصحابة الحب ابن الحب أسامة بن زيد، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وزيد بن ثابت، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس الذي يقول فيه الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد
تلقاها عرابة باليمين

والبراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وسعد بن عقيب، وسعد ابن حَبْتَةَ، وزيد بن جارية الأنصاري، وجابر بن عبد الله الراسبي

(١١) الأقيال أي: الرؤساء. (المجلة)

أو العبدى، وهو غير جابر بن عبد الله بن حرام الأنصاري أحد رواة السنة، وعمرو بن حزم، ورافع بن خديج، وأوس بن ثابت الأنصاري، وسمرة بن جندب.

ومن الطريف في قصة هؤلاء الأشبال أن النبي ﷺ أجاز رافع بن خديج بعد أن رده كما رد أقرانه المساوين له أو القريبين من سنه، إذ قيل له ﷺ: إن رافعًا يحسن الرمي، فبلغ ذلك سمرة بن جندب، فراح إلى زوج أمه مرّي بن سنان بن ثعلبة عم أبى سعيد الخدري وهو الذي ربى سمرة في حجره - يبكي وقال له: يا أبت أجاز رسول الله ﷺ رافعًا وردني، وأنا أصرع رافعًا، فرفع زوج أمه ذلك إلى النبي ﷺ، فالتفت النبي ﷺ إلى رافع وسمرة فقال لهما تصارعا، فصرع سمرة رافعًا فأجازه كما أجاز رافعًا وجعلهما من جنده وعسكر كتائبه، ولكل منهما مجاله واختصاصه الذي لا تستغني عنه وقائع الحرب، وموضع الطرافة في هذه الأطروفة التي تمثل جانبًا من جوانب منهج الرسالة في تربية النشء أن رسول الله ﷺ أجاز رافعًا إذ أجازه دون أقرانه في السن لامتياز حربي امتاز به على غيره منهم، وإنما رد ﷺ من ردهم خشية أن لا يكون لهم صبر على عض السيوف، ووقع السهام، ووخز الرماح، فيفروا من المعركة إذا مسهم لفح أوارها، فيحدث فرارهم خلخلة في صفوف المسلمين، فلما قيل لرسول الله ﷺ: إن رافعًا يحسن الرمي، والرمي هو رأس القوة في الحرب وبه فسر رسول الله ﷺ القوة في قوله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠) فقال وهو على المنبر: «ألا إن القوة الرمي» ثلاث مرات - قبل رافعًا وأجازه؛ لأنه بإحسانه الرمي يؤدي للجيش من

الأعمال الحربية ما لا يستطيع أن يؤديه ذوو الأسنان العالية، لأن الرمي لا يتطلب علوا في السن لكنه يتطلب علمًا ومعرفة ودربة وسواعد قوية.

بيد أن حمية الشباب والغيرة على مواقف البطولة في ظل الإيمان والجهاد لإعلاء كلمة الله بعثت في نفس سمرة بن جندب حماسة عارمة، فرفع أمره إلى رسول الله ﷺ بأنه أوتي قوة بدنية ودربة في المصارعة يستطيع بها أن يصرع رافعًا، وهذا امتياز تتطلبه الحرب لا ينزل في ميدان المعارك عن مستوى إحسان رافع الرمي.

وأراد الرسول ﷺ وهو القائد الأعظم والمعلم المربي أن يري أصحابه درسًا عمليًا في تربية النشء ليكون منهجًا لهم في تربية أولادهم لينهضوا في حياتهم أقوياء، ذوي مهارة على مواقف الغلبة في كل ما يفيد المجتمع المسلم في حياته ومستقبله، ليعيش بأفراده وجماعاته قويًا شجاعًا، لا تفارقه الجرأة على اقتحام المخاطر ووقائع الأحداث.

تعبئة كتائب الإسلام:

ولما أكمل رسول الله ﷺ تعبئة كتائبه وسوّى صفوفهم، والمشركون ينظرون إليه كان أولَ من ألقى به الشيطان في جحيم الغرور الفاجر فأنشب الحرب أبو عامر الفاسق، وكان يدعى في الجاهلية الراهب لتبتله وترهبه، ولكنه كان فريسة للحسد الموبق الذي أضله عن الهدى، ولم يكن يطيق أن يرى رسول الله ﷺ بالمدينة، والمؤمنون من المهاجرين والأنصار حوله حافين به يفدونه بأعز ما يملكون، فخرج الفاسق عن المدينة مباعدًا

لرسـول الله ﷺ وأنصاره ممن آمن منهم بالله ورسـوله، وأبو عامر أوسـي نغل صدره الحقد فهرب إلى مكـة وأخذ معه فئة من غلمان قومـه الأنصار أفسـدهم وغرهـم، وداخل قريشـا بعداوتـه للنبي ﷺ، وجعـل يحرضهـم علـى حـرب المجتمع المسـلم ويعدهم ويمنيهـم ويكذب عليهم بزعمـه أنه لو لقي قومه لم يختلف عليه منهـم رجلان، فأغرتـه قريش وجمعـت حوله لفيفًا مـن عبدانهم وأحابيشهم وأخرجته في هؤلاء الغوغاء معها إلى أحد.

ورأى أبـو عامر الفاسـق كتائب المجتمع المسـلم في تعبئتها فـي ظل وحـدة الإيمـان والتآخي التكافلـي، وفيهـم قومه الأوس يقفـون في صدر صفوف المجتمع المسـلم على أهبـة القتال أمام حشـد المشـركين من قريش ولفائفها المسـتأجرين من أحابيش المرتزقة، وممن اسـتهواهم أبو سـفيان من القبائل الضاربة حول مكـة، وممن بقـي فيه نفس من فَـلِّ غزوة بدر الذين فـروا هاربين يكاد الرعب يقتلهم، والفزع يمزقهم.

وخرج أبو عامر الفاسـق متقدمًا إلى صفوف المجتمع المسلم ليـري قريشًـا ما وعدهم به من الغرور والكـذب، وما له من مكانة عنـد قومـه، فنـادى: يا معشـر الأوس، أنا أبـو عامـر، فقالوا له: يكذبونـه ويفضحونه فيما أرجف بـه عنهم إلى قريش: لا أنعم الله بك عينًا يا فاسق - هذا اللقب اسم سماه به رسول الله ﷺ - وكان فـي الجاهلية يسـمى (الراهب). وعند ابن سـعد في طبقاته أنهم قالوا له: لا مرحبًا بك ولا أهلا يا فاسق.

حنظلة بن عامر غِسِّيل الملائكة:

ومـن عجيب تقدير الله في حكمته أن حنظلة غسـيل الملائكة في أحد، وهو ابن أبي عامر الفاسـق كان في الليلة التي في صبحها دارت المعركـة قد بنى بأهله، فلما سـمع الهيعة أخذ سـيفه وطار إلـى المعركـة فقاتـل وقتـل شـهيدًا، ورآه النبـي ﷺ والملائكة تغسِّـله، فسأل عن شأنه وقال: «اسـألوا أهله» فسألوا زوجته وهي أخت عبد الله بن أبي ابن سلول، فذكرت لهم ما كان منه معها وهي عروس ليلتها، وخرج وهو جنب لم يغتسل، فلما استشهد غسلته الملائكة، وهكذا تتجلى قدرة الله تعالى في قوله تعالـى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ فأخـرج حنظلـة الغسـيل مـن أبي عامر الفاسـق اللعين.

ولما سـمع أبو عامر الفاسـق رد قومه عليه، ونبزهم له باللقب الذي سـماه به رسـول الله ﷺ جـن جنونه، فقال ينفح عن نفسـه ويداري فضيحته أمام مشـركي قريش ويدفع عنه خزي موقفه وأنه لا شـيء عند قومه ولا وزن له في تقديرهم، وكان في مكة يتكذب للنـاس، ويريهـم أنه سـيقود قومه إلـى قريش ليكونـوا معهم في محاربـة محمد ﷺ ومجتمعه المسـلم: «لقد أصـاب قومي بعدي شر».

وقـد جمع كيـده وجهده في قتـال قومه الذين أكذبـوه ونبزوه باللقـب أمام من خدعهم من شـظايا قريـش، وكان هو ومن معه من عبدان قريش وأحابيشـها يترامون مع قومه بالحجارة ترامـيًا شـديدًا حتى أزلق أبطال الأوس هذا الفاسق وعبدانه وأحابيشه، ففر هو ومن

معه من عبدان قريش ولفائفها هاربًا إلى مكة لا يلوي على شيء.

تيقظت قريش من ذهول سكرتها بغرور أبي عامر الفاسق وعرفت أنه ليس أكثر من طبل أجوف متورم بالأكاذيب الفاجرة، فتركته في فراره وهربه ولم تأبه لفراره؛ لأنه كان في فراره من تساقط الحجارة عليه وعلى من اغترّ به من العبدان والأحابيش كوجوده بين حشودها المحاربة لا يُحْلي ولا يُمِرّ، ولا ينفع ولا يضر، وعادت على نفسها باللائمة المعنفة إذ جعلت لهذا الفاسق قدرًا فوق قدره ووزنته بميزان غير موازين أمثاله، لأنه مقتول الروح والضمير، ضائع كذوب، وتوهمته قريش شيئًا تعتمد عليه في حربها مع المجتمع المسلم وهي حرب جمعت لها المرتزقة من الأحابيش، ولفائف المفزَّعين من القبائل الضاربة حول مكة الذين جاءتهم النذر من بين أيديهم ومن خلفهم تحمل إليهم دوي النصر المؤزر في بدر، ذلك النصر الذي أشجى قريشًا ولفها من أحلاس الشرك وعبيد الوثنية، ودنا الجمعان بعضهم من بعض بعد فرار أبي عامر الفاسق المتكذب، وأوتر الرماة قسيهم يرشقون بها خيل المشركين فتولي جامحة تحطم كل ما يعترض شرعها وهي هاربة من مواقع النبل ورشق القسي لأنها كما قال رسول الله ﷺ في وصيته للرماة، لا تقوم على النبل.

دعوة طلحة بن أبي طلحة للمبارزة:

وهنا يصيح حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري لينقذ موقف قومه الذي بدأ يتدهور: من يبارز؟ فيبرز له يعسوب الإسلام وصنديده علي بن أبى طالب رضي الله عنه فيلتقيان بين الصفين،

ويبادره علي بضربة على رأسه فيفلق هامته فخر صريعًا، وتركه علي ولم يجهز عليه، فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال علي: إنه استقبلني بعورته وعطفتني عليه الرحم، وعرفت أن الله قد قتله، وفي هذا وأمثاله يقول الشاعر معيرًا هؤلاء الجبناء الذين يتقون الموت بكشف سوآتهم:

أفي كل يوم فارس غير مُنْتَه
وعورته وسطَ العجاجة بادية

ويقول ابن كثير: وذكر يونس عن ابن إسحق أن طلحة بن أبي طلحة العبدري حامل لواء المشركين يومئذ دعا إلى المبارزة فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير بن العوام فوثب حتى صار معه على جمله ثم اقتحم به الأرض فألقاه عنه وذبحه بسيفه، فأثنى عليه النبي ﷺ، قال: «إن لكل نبي حواريًا وحواري الزبير» وقال: «لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه لما رأيت من إحجام الناس عنه».

وصرع لواء المشركين مع حامله كبش الكتيبة طلحة بن أبي طلحة وسقط علي الأرض، وقد سر النبي ﷺ بقتل كبش كتيبة المشركين تحقيقًا لرؤياه المنامية التي رآها عشية ليلة الموقعة، وأظهر ﷺ التكبير وكبر المسلمون لتكبيره، وحمي وطيس المعركة، واشتدت حماسة المسلمين وقويت شوكتهم فشدوا بجمعهم على حشد المشركين يضربونهم حتى أنقضوا صفوفهم.

وكان عثمان بن أبي طلحة قد رفع اللواء من الأرض فحمله بعد أن جندل علي أو الزبير أخاه طلحة بن أبي طلحة فحمل أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب فتى فتيان قريش رضي الله عنه فضرب عثمان بن أبي طلحة على كاهله فقطع يده وكتفه حتى

انتهى إلى مؤتزره وبدا سحره، ورجع عنه حمزة رضي الله عنه وهو يقول منتشيًا مفاخرًا: أنا ابن ساقي الحجيج.

ثم أخذ لواء المشركين أبو سعد بن أبي طلحة، فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب حنجرته فأدلع لسانه ادلاع الكلب فقتله، فسقط اللواء صريعًا فتناوله كلاب بن طلحة، بن أبى طلحة فقتله الزبير بن العوام.

ثم حمل اللواء الجلاس بن طلحة بن أبى طلحة، فقتله طلحة بن عبيد الله.

ثم أخذ اللواء أرطأة بن شرحبيل فقتله علي بن أبى طالب رضي الله عنه، وحمل اللواء بعده شريح بن قارظ وهو أول من حمله من غير بني أبي طلحة، فقتل شريح ولم يعرف قاتله من المسلمين.

وكأنما قضى على فرسان العدو فلم يبق حاملًا للوائهم إلا عبدانهم وغلمانهم، فأخذه بعد شريح غلام لهم يدعى صؤاب، وقاتل به حتى قطعت يداه، ثم برك عليه وأخذه بصدره وعنقه حتى قتل عليه وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ قال ابن كثير: يعني اللهم هل أعذرت؟.

فقال شاعر الإسلام حسان بن ثابت في ذلك، يعير القوم بأن لواءهم لم يجد من يرفعه ويقاتل به إلا غلام من غلمانهم وقد نكلوا عنه جميعًا جبنًا ورعبًا:

فخرتم باللواء وشر فخر
لواء حين رد إلى صؤاب
جعلتم فخركم فيه لعبد

وألأم مـن يطـا عفـر التـراب

وصؤاب هذا لم يشـرَّف بأن يقتله مسـلم، فضـلًا عن بطل من أبطال المسـلمين الذين قتلوا العبدريين، وإنمـا قتله قزمان الذي خرج وهو كافر مع المسـلمين يقاتل حمية على أحسـاب قومه لا للإسلام.

قصة قزمان وإخبار النبي ﷺ بأنه من أهل النار فمات منتحرًا:

وقد ذكر قصته ابن إسحاق عن قتادة: قال كان فينا رجل أتى لا يُدرى من هو؟ يقال له قزمان، فكان رسـول الله ﷺ يقول إذا ذكر عنـده قزمان: «إنه مـن أهل النار»، فلما كان يـوم أحد قاتل قزمان قتالًا شـديدًا، فقتل وحده من المشـركين ثمانية أو سـبعة، وكان ذا بـأس، فأثبتته الجراحة، فاحتُمل إلى دار بني ظفر، فجعل رجال من المسـلمين يقولون له: أبشر يا قزمان، فوالله لقد أبليت اليوم، قـال: بماذا أبشـر؟ فـوالله إن قاتلتُ إلا عن أحسـاب قومي، ولولا ذلك ما قاتلتُ، فلما اشـتدت عليه جراحته أخذ سهمًا من كنانته، فقتل به نفسه.

وقـد روى ابـن كثير عن الإمام أحمد قصة شـبيهة بقصة قزمان في غزوة خيبر، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزَّاق حدثنا معمر، عـن الزهـري، عن ابن المسـيب، عن أبي هريرة قال: شـهدنا مع النبـي ﷺ خيبر، فقـال لرجل ممن يدَّعي الإسـلام: «هذا من أهل النار» فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شـديدًا، فأصابته جراحة فقيـل: يا رسـول الله، الرجل الـذي قلت «إنه من أهـل النار» قاتل

اليــوم قتالًا شــديدًا وقد مــات، فقال النبي ﷺ: «إلــى النار» فكاد بعض القوم أن يرتاب، فبينما هم على ذلك إذ قيل: فإنه لم يمت، ولكن به جراح شــديدة، فلما كان من الليل لم يصبرْ على الجراح فقتل نفســه، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورســوله» ثم أمر بلالًا فنادى في الناس، أنه لا يدخل الجنةَ إلا نفسٌ مسلمةٌ، وأن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر.

فلمــا قُتل حملةُ اللواء من المشــركين، واحدًا إثر واحد، حتى بلغــوا ثمانيــة رجــال كلهم يعــدون من أبطــال قريــش الطلحيين العبدريين، وأكثرهم من ولد أبي طلحة عثمان أخي شيبة وحفدته، حتى انتهى القتل إلى غلامهم صؤاب الحبشيِّ الذي كان آخر حامل للواء، وبقتله ســقط معه اللواء، وظل ســاقطا على الأرض لا يجرؤ أحد من المشركين على رفعه من الأرض وأخذه حاملًا له ليقاتل به حتى جاءت امرأة يقال لها عمرة بنت علقمة الحارثية، والمشركون يعرفون أن المسلمين لا يقتلون النساء والولدان والعجزة، فرفعت عمرة اللواء للمشــركين فلاثُوا به، واســتداروا حوله بعد أن جبنوا عن الإقدام على رفعه، ولكن سيوف المسلمين مشت إلى أعناقهم تجتثُّها بهاماتهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وكانت الدائرة أول النهار للمسلمين على الكافرين، وحسوهم بإذن الله حسًا تصديقًا لوعــده فــي قولــه تعالــى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ (آل عمران: ١٥٢)

ثــم ذكــر الله تعالى ما كان من الرماة مــن عصيان ومخالفة لأمر رســول الله ﷺ فــي قوله لهــم: «لا تبرحــوا ولو رأيتمونــا تخطفنا

الطير » فقال تعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡ ﴾ (آل عمران : ١٥٢)

حديث ابن عباس في نصر أُحُد وتحوله بعد مخالفة الرماة:

وفي حديث ابن عباس عند الإمام أحمد أنه قال : ما نصر الله النبي ﷺ في موطن كما نصره يوم أحد ، فأنكرنا ذلك ، فقال ابن عباس : بيني وبين من أنكر ذلك كتاب الله ، إن الله يقول في يوم أحد : ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ ﴾ الآية وإنما عنى بهذا الرماة ، وذلك أن النبي ﷺ قد أقامهم في موضع وقال : « احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتَل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا » فلما غنم النبي ﷺ وأزاحوا عسكر المشركين أكبَّ الرماة في العسكر ينهبون ، وقد التفتَّ صفوفُ أصحاب رسول الله ﷺ في المشركين وتشابكوا فيهم وانتشبوا ، فلما أخل الرماة تلك الخطة التي كانوا فيها دخلت خيلُ المشركين من ذلك الموضع على أصحاب الرسول

ﷺ فجعل يضرب بعضهم بعضًا، التبسوا، وقُتل من المسلمين ناسٌ كثير، وقد كان النصر لرسول الله ﷺ أول النهار، حتى قُتل من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة، وجال المشركون جولة نحو الجبل.

قال ابن كثير في تفسيره بعد أن ساق الحديث بطوله: هذا حديث غريب، وسياق عجيب وهو من مرسلات ابن عباس، فإنه لم يشهد أحدًا ولا أبوه، وقد أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي النضر الفقيه عن عثمان بن سعيد عن سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس به، وهكذا رواه ابن أبي حاتم والبيهقي في دلائل النبوة من حديث سليمان بن داود الهاشمي، ولبعضه شواهد في الصحاح وغيرها.

وأخرج الإمام أحمد من حديث الشعبي عن ابن مسعود، قال: إن النساء -أي المسلمات- كُنَّ يوم أحد خلف المسلمين -أي ساعة نصرهم على المشركين- يُجهِزْن على جرحى المشركين، فلو حلفتُ يومئذ رجوتُ أن أُبَرَّ: أنه ليس منا أحد يريد الدنيا حتى أنزل الله ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ فلما خالف أصحاب رسول الله ﷺ -يعني الرماة- وعصوا ما أمروا به، أُفرد النبي ﷺ في تسعة أو سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم ﷺ.

قول ابن مسعود: (ما كنا نرى أن أحدًا من الصحابة

يريد الدنيا) معارض لآية الأنفال ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾

وحديث ابن مسعود في أنه كان يرى أن ليس أحدٌ من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا حتى أُنْزِلَ ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ لا ندري ما وجهه، وهو مروي بعدة روايات من وجوه مختلفة، مع قول الله تعالى في قصة غزوة بدر، يعاتب جمهور المجاهدين الذين تسرعوا في إنهاء المعركة بمجرد ظهور بوادر النصر قبل الإثخان في العدو وكسر شوكته، دون أمر من القائد الأعظم رسول الله ﷺ، ودون رضا منه عن هذا التصرف استعجالاً منهم لجمع الغنائم واستبقاء الرجال لأخذهم أسرى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ قال الزرقاني: وقد يرد عليه -أي على قول ابن مسعود- قوله تعالى في عتاب أهل بدر في قصة الأسرى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وهي من سورة الأنفال السابقة في النزول على سورة آل عمران.

وقصة بدر ووقعتها أسبق من قصة أحد وغزوتها، وآية ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ التي نزلت عتاباً لجمهور المجاهدين في بدر من سورة الأنفال التي نزلت مستوعبة لقصة بدر وغزوتها وأحداثها ووقائعها، وهي أسبق نزولاً من سورة آل عمران التي فصلت فيها قصة أحد وغزوتها وأحداثها ووقائعها.

وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه قد شهد الغزوتين، وكان له في

غزوة بدر موقفٌ لا يُنسى، فهو الذي أجهز على الفاسق أبي جهل، وبشر النبي ﷺ بقتله، وحمل إليه رأسه.

وابن مسعود من أقرأ أصحاب النبي ﷺ للقرآن وأحفظهم له وأعرفهم لموارد آياته ومصادرها، وأفهمهم لمقاصدها وأهدافها، فكيف يقول عن قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ﴾ وهو من سورة آل عمران التي ذكرت قصة أحد وأحداثها وهي متأخرة عن بدر وأحداثها: ما كنا نرى أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ والله تعالى قد قاله لبعض أصحاب رسول الله ﷺ في سورة الأنفال يعاتب به جمهور المجاهدين في غزوة بدر، ولا بد أن يكون ابن مسعود من أكثر وأسبق من سمعه، وذلك في قوله جل شأنه خطابًا للمعاتبين به من المؤمنين المجاهدين في غزوة بدر، فهل نسي ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية من سورة الأنفال وهو الذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «من أراد أن يقرأ القرآن غضًا فعليه بقراءة ابن أم عبد». وجلَّ من لا يسهو.

اختلاف الرماة بعد أن رأوا هزيمة المشركين:

ولما رأى الرماة الهزيمة تَحيق بالمشركين اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا، هل يظلون ثابتين في مقامهم الذي أقامهم فيه رسول الله ﷺ على عينين أو ينزلون لمشاركة إخوانهم المجاهدين في أخذ

الغنائم، وكانت كثرتهم تجنح إلى النزول للغنائم لئلا يستأثر بها جامعوها، بيد أن رئيسهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه كان يرى الثبات في مقامه الذي أقامه فيه رسول الله ﷺ ونصح إخوانه ووعظهم، وذكّرهم بأمر رسول الله ﷺ ووصيته أن لا يبرحوا من مكانهم حتى يرسل إليهم، وأن المسلمين لا يزالون غالبين ما ثبتُّم في مكانكم، فردوا عليه وعظه لهم وقالوا متشبثين بالتأويل: لم يُرد رسول الله ﷺ ذلك، قد انهزم المشركون، فما مقامنا هاهنا؟

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب: فقال أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة، الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟. وفي كتاب المغازي من الصحيح فقال عبد الله بن جبير: عَهِدَ إليَّ رسول الله ﷺ أن لا تبرحوا فأبوا، وقالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة.

فلما صمَّمُوا على مخالفتهم لرئيسهم، وأتوا الناس ليأخذوا معهم من الغنيمة حولت وجوههم عن اتجاهها وقصدها، وعادوا من حيث أتوا منهزمين عقوبةً لهم لمخالفتهم أمرَ القائد الأعظم رسول الله ﷺ وقوله لهم حين أقامهم مقامهم قبيل نشوب المعركة: «لا تبرحوا».

شؤم ارتكاب النهي ومخالفة أوامر القيادة في الحرب:

قال الحافظ ابن حجر: وفيه شؤم ارتكاب النهي، وأنه يعم ضرره من لم يقع منه لقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ

﴿ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ وأنَّ مـن آثر دنياه أضرَّ بآخرته ولم تحصل له دنياه.

صيحة إبليس كانت كيدًا للمسلمين:

والمتأمـل في أوامر رسـول الله ﷺ ووصايـاه للرماة يرى أنه لا وجـه لتأويلهم أمر رسـول الله ﷺ ووصيتـه، ولا محلَّ لاجتهادهم فـي كلامه ﷺ وصرفه عن مدلوله الظاهر الذي لا يحتمل التأويل، وقد كان تأويلهم وَخِيمَ العاقبة عليهم وعلى جميع المجاهدين في موقفهم من المعركة، حتى لحق أثر شؤم هذا التأويل رسول الله ﷺ فيما أصابه من شدة المحنة ولحقه من الجراحة البالغة؛ لأن مخالفة الرماة لأمره ﷺ كانت هي السـبب في انتقاض صفوف المسلمين واسـتدارة رحاهم وتحولت ريحهم دبـورًا تلفحهم بلهب الهزيمة بعد أن كانت صبًا تحمل إليهم نسمات النصر، حتى اختلط أمرهم وصاروا يقتتلون على غير شـعار يضرب بعضهم بعضًا من شدة ما أصابهم من ذهول المفاجأة والدهش، وفي حديث عائشـة رضي الله عنها عند البخاري قالت: لما كان يوم أحد هُزم المشـركون هزيمة بينة فصـاح إبليس لعنه الله: أي عباد الله أخراكم، وهي كلمة يكيد بها المسـلمين، قال ابن حجـر: أي احترزوا من جهـة أخراكم، وهي كلمـة تقـال لمن يخشـى أن يؤتى عند القتال مـن ورائه، فرجعت أولاهـم -أي أولـى طائفتي المسـلمين- فاجتلدت مـع أخراهم، وهـذا تصويـر لما حلَّ بصفوف المسـلمين من نغـضٍ واضطرابٍ وفوضى،(١٢) لما أصابهم من الدهش.

(١٢) النغض في الشيء بعدُه عن الهيئة المرغوبة . (المجلة)

وعنـد الحاكم والإمـام أحمد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن المسلمين لما رجعوا حين سماعهم كلمة إبليس لعنه الله اختلطوا بالمشـركين، والتبس العسـكران، فلم يتميزوا لشـدة ما فاجأهم مـن الاضطراب والدهش، فصاروا لا يُعْـرَفُ المسـلمُ من الكافرِ، فوقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض حتى قَتلوا خطأً اليمانَ أبـا حذيفـة رضي الله عنهمـا، وجعـل حذيفةُ لمـا رآهم قد أحاطـوا بأبيه وتناولوه بسيوفهم يقول: أبي، أبي، فما تحاجزوا حتى فرغوا منه فقتلـوه، فقال حذيفة: يغفر الله لكم. وأبـى أن يأخذ ديته وتركها للمسلمين.

تراجـع المشـركين وتجمعهـم وثبـات رسـول اللـه ﷺ فـي موقفـه لا يـزول:

وتراجع المشـركون بعد هزيمتهم، وتجمَّعوا، وتنادوا بشعار وثنتيهم وهم يهتفون بآلهتم الباطلة، وأوجعوا في المسلمين قتلًا، حتى ولَّى المسـلمون الأدبار تاركين رسول الله ﷺ ثابتًا في مقامه لا يزول عنه وهو يضارب المشـركين، ولم يثبت معه من أصحابه إلا عصابـةٌ من أربعة عشـر رجلًا، سـبعة من المهاجريـن فيهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وسـبعة من الأنصـار، وضربه ابن قمئة لعنه الله بسـيفه فاتقـاه طلحة بن عبيد الله فشُـلَّتْ أصبعـه، وصرخ ابن قمئـة في المشـركين بأنه قتل محمـدًا ﷺ، وكان قد قُتل مصعب بن عمير وهو ينافح عن رسول الله ﷺ ويتلقى عنه قعص السيوف وطعن الرماح، يرى أنه رسول الله ﷺ، فصرخ ابن قمئة في صفوف المشـركين صائحًا: قتلت محمدًا، فلما سمعه أبو سفيان طارَ بها

غرورًا، ثم علا نشــزًا يشــرف منه على المسلمين وهو يقول: أفي القوم محمد؟ فقال رســول الله ﷺ: «لا تجيبوه» حتى قالها ثلاثًا، ثــم قال: أفــي القوم ابــن أبي قحافــة؟ ثلاثًا فقال رســول الله ﷺ: «لا تجيبــوه»، ثــم قال: أفي القــوم عمر؟ ثلاثًا، فقــال النبي ﷺ: «لاتجيبوه»، ثم التفت أبو ســفيان إلى أصحابه المشركين، فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فلم يملك عمر نفسه دون أن يقول له: كذبت يــا عدو الله، فقد أبقى الله لك من يخزيك، إن الذين عددت لأحياء كلهم.

فلمــا أجاب عمر أبا ســفيان، قــال له: هلم إليَّ يــا عمر، فقال رســول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شــأنه؟ فأتاه عمر، فقال له أبو ســفيان: أنشــدك الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟ قــال عمر: اللهم لا، وإنه ليســمع كلامك الآن، فقال أبو سفيان: أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبرّ.

شــجاعة خارقــة تحلــى بهــا رســول اللــه ﷺ فــي أشــد المواقــف تأزمًــا:

وثبت النبي ﷺ وحده ما يزول عن موقفه، وهو يضارب العدو بالحجارة بعد أن تشظَّتْ قوسه كما رواه البيهقي عن المقداد قال: فوالذي بعثه بالحق ما زالت قدمه شبرًا واحدًا وإنه لفي وجه العدو، وتفــيء إليه طائفة من أصحابــه مرة وتفترق مرة، فربما رأيته قائمًا يرمي عن قوسه ويرمي بالحجر حتى انحازوا عنه.

وروى أبو يعلى بســندٍ حســن عن علي رضي الله عنه قال: لما انجلى

الناس يوم أحد نظرتُ في القتلى فلم أر رسول الله ﷺ، فقلت: والله ما كان ليفرَّ وما أراه في القتلى، ولكن أرى أن الله غضب علينا فرفع نبيَّه فما لي خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جفن سيفي ثم حملت على القوم فأفرجوا لي فإذا أنا برسول الله ﷺ بينهم يقاتلهم.

سعد بن أبي وقاص يفدي رسول الله ﷺ بنفسه:

وروى الحاكم في المستدرك بسندٍ على شرط مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: لما جال الناسُ عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد قلت: أذود عن نفسي فإمَّا أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله ﷺ، فبينا أنا كذلك إذا برجل مخمَّرٍ وجهُه ما أدري من هو، فأقبل المشركون حتى قلتُ: قد ركبوه، فملأ يده من الحصى ثم رمى به في وجوههم فتنكبوا عنه على أعقابهم القهقرى حتى يأتوا الجبل ففعل ذلك مرارًا، ولا أدري من هو؟ وبيني وبينه المقداد، فبينا أنا أريد أن أسأل المقداد عنه إذ قال المقداد: يا سعد هذا رسول الله ﷺ يدعوك فقلت: وأين هو؟ فأشار لي إليه، فقمت ولكأني لم يصبني شيء من الأذى، وأجلسني أمامه، فجعلت أرمي، وأقول: اللهم سهمَك فارم به عدوك، ورسول الله ﷺ يقول: «اللهم استجب لسعد، اللهم سدِّدْ رميته، وأجب دعوته» حتى إذا فرغت من كنانتي نثر ﷺ ما في كنانته فنبَّلني سهمًا نضًا -أي الذي قد ريش- وكان أشد من غيره، وفاء إليه ﷺ بعض أصحابه الذين لم يذهبوا بعيدًا إذْ تولوا عنه إثر صرخة الشيطان وقاتلوا دونه وهم يقولون: وجوهنا دون وجهك

ونفوسنا دون نفسك وعليك السلام غير مودع.

وكان من هؤلاء الذين ثبتوا بين يديه ﷺ أبو بكر الصديق رضي الله عنه وعمر وعبد الرحمن بن عوف وسعد وطلحة والزبير وأبو عبيدة وأبو دجانة والحباب بن المنذر وعاصم بن ثابت والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة.

وكان علي بن أبي طالب حامل لواء المجتمع المسلم بعد مصعب بن عمير، ولم يُعرَف أن لواء الإسلام سقط من علي رضي الله عنه قط.

شدة الفزع أخرجت عصارة الضعف في حدثاء الإسلام:

ولما فشا في الناس أن رسول الله ﷺ قد قُتل رُعِب المسلمون رعبًا شديدًا، وأخذهم الفزع واستولى عليهم الهلع والجزع حتى فقدوا توازنهم وزُلزلوا زلزالًا شديدًا لعب بصبرهم وحميتهم الإيمانية، واستحوذ عليهم ضعف الطبيعة البشرية، فتقاولوا فيما يصنعون بعد فجيعتهم بقائدهم الأعظم ورسولهم الأكرم، فقال بعضهم وقد هزت الفجيعة العظمى والكارثة المدمرة إيمانهم هزًا عنيفًا: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أبيّ بن سلول فيأخذ لنا أمنةً من أبي سفيان، يا قوم إن محمدًا قُتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

وهذا كلام لا يخرج من قلب أضاءه الإيمان بنور الفدائية المسلمة، فهو إمَّا من دسيس المنافقين، وإمَّا من عُصارات حدثاء الإسلام الذين لم يذوقوا حلاوة الإيمان، وقد يكون هذا الكلام مما أُدخِل على الوقائع التي صار جوُّها بعد الهزيمة مسرحًا لتقبل ما

يقال إنْ صدقًا وإنْ كذبًا .

كان في صفوف الكتائب المسلمة دسيس من المنافقين:

والقرآن قد دل في آياته على أن بعض المنافقين لم ينخذلوا مع ابن أبي ، ولكنهم ظلوا في جيش الإسلام طمعًا في الغنيمة والإرجاف بالمؤمنين يبغونهم الفتنة ، وفي المؤمنين ضعفى القلوب الذين يتلقفون أراجيف المنافقين فتذيبهم رعبًا وخوفًا .

وفي هؤلاء يقول الله تعالى : ﴿ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ﴾ (آل عمران : ١٥٤) . قال القرطبي : وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يعني المنافقين ، معتب بن قشير وأصحابه وكانوا قد خرجوا طمعًا في الغنيمة .

ولما رأوا الهزيمة جعلوا يلومون أنفسهم على خروجهم في صفوف المسلمين ويقولون : لو كانت لنا عقولٌ ما خرجنا إلى قتال أهل مكة وما قُتل رؤساؤنا وعشائرنا .

إقامة الله تعالى العذر لصادقي الإيمان وعفوه عنهم:

ثم عذر الله عز شأنه الذين تولوا عن رسول الله ﷺ منهزمين ، وتلطّف بهم فعفا عنهم ، وأنزل في ذلك قرآنًا يُتلى حتى لا يتعلق بما كان منهم أحد يعيبهم به فقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ

عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ (آل عمران: ١٥٥) والمعنى أن هؤلاء المنهزمين عن رسول الله ﷺ إنما حملهم على الزلل والخطيئة شدة ما غافصهم من الهول في موقفهم، فضعفوا عن الثبات، وجانبهم الصبر على رغائب أنفسهم في الإصابة من المظالم؛ وذلك بسبب معصيتهم رسولَ الله ﷺ ومخالفتهم أوامره ووصاياه في الثبات في موقفهم الذي وقفهم فيه على الجبل لحماية ظهر المجاهدين الواقفين في مواجهة العدو يقاتلونه، والمقصود بالاسم الموصول هم الرماة.

قال القرطبي: وعلى الجملة فإن حُمل الأمر على ذنب محقق فقد عفا الله عنه، وإن حُمل على انهزام مسوغ فالآية فيمن أبعد في الهزيمة.

معاتبةٌ بين عثمان وعبد الرحمن بن عوف تزيد عثمان رفعةً وشرفًا:

ثم روى القرطبي عن أبي الليث السمرقندي قال: حدثنا الخليل بن أحمد قال: حدثنا السراج، قال: حدثنا قتيبة قال: حدثنا أبو بكر بن غيلان عن جرير أن عثمان كان بينه وبين عبدالرحمن بن عوف كلام، فقال له عبد الرحمن بن عوف أتسبني وقد شهدتُ بدرًا ولم تشهدْ، وقد بايعتُ تحت الشجرة ولم تبايعْ، وقد كنتَ تولى مع من تولى يوم الجمع -يعني يوم أحد-.

فرد عليه عثمان رضي الله عنه فقال: أما قولك: أنا شهدت بدرًا ولم تشهد فإني لم أغبْ عن شيء شهده رسول الله ﷺ إلا أنَّ بنت رسول الله ﷺ كانت مريضةً، وكنت معها أمرِّضها، فضرب لي رسول الله ﷺ سهمًا في سهام المسلمين، وأما بيعة الشجرة فإن رسول الله

ﷺ بعثني ربيئة على المشركين فضرب رسول الله ﷺ يمينه على شماله فقال: «هذه لعثمان» فيمين رسول الله ﷺ وشماله خيرٌ لي من يميني وشمالي، وأما يوم الجمع فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ فكنت فيمن عفا الله عنه فحج عثمانُ عبدَ الرحمن.

ويتعلق من يغمز ذا النورين بالعيب بما وقع في غزوة أحد، وهذا الحديث عن عبد الرحمن بن عوف يدفع في صدور هؤلاء العيابين ويرد عليهم فريتهم على ثالث الراشدين.

وعثمان رضي الله عنه لم ينفرد بما كان يوم أحد بل شاركه فيه جمهرة الأصحاب، وحسْب العيابين لو كانوا يعقلون موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو من هو في قوة إيمانه وصرامته في الحق فإنه كان ممن ولَّى منهزمًا ولكنه لم يبعد.

حديث ابن عمر في بيان أسباب الأمور التي يأخذها العيابون على عثمان:

وقد روى البخاري في صحيحه ما يقيم دعائم الدفاع عن عثمان رضي الله عنه في حديث عبد الله بن عمر من طريق عثمان بن موهب قال: جاء رجل حج البيت، فرأى قومًا جلوسًا فقال: مَن هؤلاء القعود؟ قيل: هؤلاء قريش، قال: من الشيخ؟ قالوا: ابن عمر، فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء أتحدثني؟ قال: أنشدك بحرمة هذا البيت أتعلم أن عثمان بن عفان فرَّ يوم أحد؟ قال: نعم، قال: فتعلمُه تغيَّبَ عن بدرٍ فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: فتعلمُ أنه تخلَّف عن بيعة الرضوانٍ فلم يشهدها؟ قال: نعم، فكبَّر الرجل.

قال ابن عمر: تعالَ لأخبرك ولأبيِّن لك عما سألتني عنه، أمَّا

فراره يوم أحد فأشهد أنَّ الله عفا عنه، وأمَّا تغيبه يوم بدر فإنه كانت تحته بنتُ رسول الله ﷺ وكانت مريضةً، فقال له النبي ﷺ: «إن لك أجرَ رجلٍ ممن شهد بدرًا وسهمه»، وأما تغيبه عن بيعة الرضوان فإنه لوْ كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه، فبعث عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال النبي ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان» فضرب بها على يده فقال: «هذه لعثمان» اذهبْ بها الآن معك.

قتل أبيّ بن خلف بيد رسول الله ﷺ:

وقد قتلَ رسولُ الله ﷺ وهو في أشد الوجع من آلام جراحاته التي أصيب بها - أبيَّ بن خلف إذ أقبل هذا الكفور العنيد، ورسول الله ﷺ يدعو أصحابه ليردهم عن الاسترسال في الهزيمة وهو يقول لهم: «إليّ عباد الله، إليّ عباد الله» وأبيٌّ لعنه الله يصيح: أين محمد؟ لا نجوتُ إن نجا، لأقتلنه، فسمعه رسول الله ﷺ فقال: «بل أنا أقتله إن شاء الله».

ولما قرب هذا الفاجر الكفور من رسول الله ﷺ خشي بعض من كان قد فاء إلى رسول الله ﷺ على رسول الله ﷺ من أن يناله هذا الفاجر بضرر، فهم به ليدفعه، فقال لهم رسول الله ﷺ: دعوه، ثم تناول الحربة من الحارث بن الصمّة، فقذفه بها فوقعتْ في جيب درعه فكسرت ضلعًا من أضلاعه واحتقن الدم، فلم يخرج، فوقع أبيٌّ وهو يتدأدأ من فوق فرسه[١٣]، فخار كما يخور الثور واحتمله

(١٣) تدأدَأ الرجلُ: مال عن شيء فاندفع يمينًا ويسارًا. (المجلة)

المشـــركون وهم يقولون له: ليس بك جراحة فما يجزعك؟ فقال لهـــم أُبيّ لعنه الله: أليس قد قـال: «لأقتلنك» لو كان ما بي بجميع ربيعة ومضر لقتلهم، فلم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم حتى هلك.

شدة الفزع أدهشت المسلمين ففرقتهم:

وقد بلغ الفزع والدهش بالمسـلمين مبلغًـا أذهلهم عن التدبر في الموقف وعواقبــه، وفيما يجب عليهم أن يقابلوه به من الفيئة والثبات والدفاع عــن عقيدتهم وكيانهم، فذهبوا مولِّين في فِجاج الأرض لا يجمعهــم مكانٌ. قـال الحافظ ابن حجـر: والواقع أنهم صـاروا ثلاث فرق: فرقة اسـتمروا في الهزيمة إلـى قرب المدينة فمـا رجعوا حتـى انفض القتال، وهم قليل، وهــم الذين نزل فيهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ ﴾ وفرقة صاروا حيارى لما سـمعوا أن النبي ﷺ قـد قُتـل، فصارت غاية الواحد منهم أن يذب عن نفســه ويسـتمر علـى بصيرته في القتال إلـى أن يقتل وهم أكثـر الصحابة، وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ حتى أدركتهم الفئة الثانية.

مظاهر شجاعة الصحابة في أُحُد

كانــت مظاهر الشــجاعة البطولية في أصحاب رسـول الله ﷺ مختلفــة أشــد الاختلاف، وقــد محَّصهم البلاء الــذي أصابهم يوم أحـد تمحيصًا جعل منهم مجتمعًا له معالمه الخالصة من شـوائب الضعـف النفســي الذي يفتك بقـوة الإيمان فتـك جراثيم الأوبئة

الجائحة بمقومات الأبدان ووشائج تماسكها، أو فتك الريب والشكوك بعواصم الأرواح، وإلى هذا التمحيص يشير رسول الله ﷺ بقوله: «لا يصيب منا المشركون مثلها حتى يفتح الله علينا».

وكان رسول الله ﷺ أعلم الناس بأصحابه في تربيته لهم وآثار تلك التربية في اختلاف مظاهر شجاعتهم، وكان يعطيهم من هذا العلم الذي عنده بأحوالهم ما يعطيه الطبيب الحاذق العليم للمرضى الذين يعالجهم من أمراض أبدانهم، والذين يداويهم من أسقامهم حتى يبرئهم منها، ليخوضوا غمرات الحياة أقوياء، أصحاء، لا تعجزهم العقبات عن اقتحامها، وهذا كما قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

حوار مستطلع يكشف عن مظاهر البطولة:

أخرج مسلم في صحيحه، والإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه، والطبراني عن قتادة بن النعمان، وابن راهويه، والبزار عن الزبير، قالوا: عرض رسول الله ﷺ سيفًا يوم أحد، فأخذه رجال فجعلوا ينظرون إليه ويبسطون أيديهم رغبة في أخذه، فقال ﷺ: «من يأخذه بحقه؟» فأحجم القوم، ثم قام إليه رجال، فيهم أبو بكر، عمر، وعلي، والزبير، فأمسكه عنهم، حتى قام إليه أبو دجانة -سماك بن خرشة- فقال: وما حقه يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «أن تضرب به في وجه العدو حتى ينحني، ولا تقتل به مسلمًا، ولا تفر به عن كافر» فقال أبو دجانة: أنا آخذه بحقه يا رسول الله فأعطاه له.

وهـذا الحوار المسـتطلع لخفايـا النفوس يمثل لونًـا من ألوان الفراسـات النبوية الصادقة، وتوسـمات القيادة العليمة المعلمة، وفي ذلك من معالم التربية القيادية في مجال المعارك لإظهار أسرار الرجال درس تربوي يجب على القادة أن يتعلموه ويعملوا به.

وكان أبو دجانة رجلًا شـجاعًا جريئًـا، لا يهاب الموت، وكان إلـى جانـب ذلك ميمون النقيبـة في الحرب إذا خاضها مشـى في حومتها متخايلًا تيَّاهًا يتبختر في مِشـيته، فلما أخذ سـيفَ رسول الله ﷺ مشـى مِشـيته، فرآه رسولُ الله ﷺ وهو يتخايل فقال ﷺ: «إنها لمِشيةٌ يُبغضها الله إلا في مثل هذا الموطن».

بطولة أبي دجانة يرصدها الزبير:

قـال الزبير بن العوام -وهو من صناديد أبطال الإسـلام-: لقد وجدتُ في نفسـي -أي تأثرت في شيء من الغضب الحزين- حين سـألت رسول الله ﷺ السيف فمنعنيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت: أنا ابـن صفية عمته ومن قريش، وقد قمتُ إليه وسـألته إياه قبله، فأعطـاه أبـا دجانـة وتركنـي، فقلـت: والله لأنظرن مـا يصنع أبو دجانـة؟ فاتبعتُه، فأخـذ أبو دجانة عصابة له حمـراء، فعصب بها رأسَـه، فقالت الأنصـار: أخرج أبو دجانة عصابـة الموت، وهكذا كانت تقول له، إذا تعصب بها، فخرج لا يلقى أحدًا من المشركين إلا قتله، وعند الإمام مسـلم من حديـث أنس: ففلق أبو دجانة هام المشركين.

وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحًا إلا ذفف عليه[١٤]،

(١٤) ذفَّفَ على الجريح أجهز عليه. (المجلة)

فلقيه أبو دجانة، فجعل كلٌّ واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ اللّٰه أن يجمع بينهما والتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشركُ أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه[١٥]، وضربه أبو دجانة فقتله.

قال الزبير: ثم رأيت السيف على رأس هند بنت عتبة، ثم عدل السيف عنها، وكانت تحمِّس الناس حمسًا شديدًا، تحرضهم على القتال وتغريهم بإشعال نار الثأر لقتلى بدر، فلمَّا حمل عليها أبو دجانة ولولت مستغيثة، قال أبو دجانة: فأكرمتُ سيف رسول اللّٰه ﷺ أن أضرب به امرأة.

وقال الزبير في رواية أخرى: خرج أبو دجانة بعدما أخذ السيف من رسول اللّٰه ﷺ، واتبعته، فجعل لا يمر بشيء إلا أفراه وهتكه، وفلق به هام المشركين حتى أتى نسوة في سفح الجبل، ومعهن هند بنت عتبة، وهي تغني تحرض المشركين، فحمل عليها فنادت يالصخر، فلم يجبها أحد، فانصرف عنها، فقلت له: كل سيفك أعجبني غير أنك لم تقتل المرأة؟ قال: كرهت أن أضرب بسيف رسول اللّٰه ﷺ امرأة لا ناصر لها.

هذا لون من الشجاعة النفسية والبدنية منسوج بخيوط من الجراءة العارمة، وكان هذا اللون معروفًا لصاحبه بطل الإسلام أبي دجانة الأنصاري يعرفه هو من نفسه، ويعرفه له قومه الأنصار، له معالم عندهم، يتخذها وشُهر بها، وعرفها له قومه، وصاحب هذه الشجاعة البطولية يزينها بالنخوة والمروءة، فلا يصب نيرانها على ضعيفٍ لا ناصر له، لا سيما إذا كان سلاحه في هذه الشجاعة

(١٥) الدرقة ترس من جلود. وقوله (فعضَّتْ بسيفه) معناه فعلقت جلود الدرقة بالسيف. (المجلة)

مشــرفًا ، خص به دون سائر أبطال الإســلام وشجعانه ؛ ولهذا أبت عليه نخوته البطولية ، ومروءته الإسـلامية أن يقتل بسـيف رسول الله ﷺ امرأةً صاحت تطلب الصريخ ، وتسـتصرخ مستغيثة إذ رفع السـيف على رأسـها تطلب النصراء فلا تجد نصيرًا ، لكنه فلق به هامات الأبطال المشـركين ، فكان لا يلقـى جمعًا منهم إلا فضه ، ولا يعرض له بطلٌ من أبطالهم إلا جعله كأمس الدابر .

معرفة رسول الله ﷺ بأقدار الرجال وخصائصهم:

وكان رسـول الله ﷺ يقدِّر هذه الصفات البطولية في أبي دجانة ويعـرف له حقـه فيها ؛ إذ لم تكـد الحرب في أحد تـزأر بالأبطال ويتنادى أُسْـدُها باللقاء حتى عرض رسـول الله ﷺ سـيفًا كان في يده ونادى في أصحابه : «من يأخذْ هذ السـيف بحقه ؟» فاستشرف له جماعـة من خاصة أبطال الجهاد في الإسـلام ، وجعلوا ينظرون إلى هذا السـيف الذي تخيره رسـول الله ﷺ ليعرضه عليهم ويثير في نفوسـهم حمية بطولية الجهاد لإعـلاء كلمة الله ، نظر تفحص وتطلع إلى سره الذي جعل رسول الله ﷺ ينادِي عليه بين أصحابه ، فيطلبه أبو بكر الصديق وعمر وعلي رضي الله عنهم ، ويطلبه معهم الزبير بن العوام ، ابن عمة رسول الله ﷺ القرشي ، وهو أشهر في شجاعته البطولية شـهرةً ملأت أرض الإسـلام ، فيعرض عنه رسـول الله ﷺ ثلاث مرات .

وإذا بأبي دجانة سـماك بن خرشـة الأنصاري ، يسأل رسول الله ﷺ عـن حق هذا السـيف المغلف بالأسـرار ، فيجيبـه النبي ﷺ بقولـه : «حقه أن تضـرب به في العـدو حتى ينحنـي» ومعنى هذا

أن حق هذا السيف شجاعة تملك على من يأخذه ليحارب به المشركين مشاعره ومعالم بطولته، وكرة على العدو، فيضرب به في صفوفه ضربًا متواصلًا، يفري به الهامات لا يكل ولا يعيا حتى ينحني السيف في يده.

وكان أبو دجانة أصدق وفاءً بوعد رسول الله ﷺ، فأدَّى حقَّ السيف الذي خصه به رسول الله ﷺ دون أكابر أصحابه وأبطالهم، وهذه الميزة التي ظفر بها أبو دجانة رضي الله عنه وإن كانت لا تدل على تفضيله على من استشرفوا للسيف متطلعين إلى أخذه، والنبي ﷺ يُعرِض عنهم، وفيهم ابن عمته الزبير بن العوام، وهو من لا تنكر بسالته وشجاعته وبطولته في جهاد الإسلام، لكنها تدل على فضله وشجاعته في معامع الوغى.

الزبير ينظر ما يصنع أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ الذي آثره به فيرى بطولته فيعلم حكمة إيثاره على غيره:

وقد تأثر الزبير رضي الله عنه من إعراض النبي ﷺ وهو يطلب منه السيف ثلاث مرات، فيأبى عليه ﷺ إعطاءه إياه، كما أبى إعطاءه غيره من الذين استشرفوا لأخذه، وفيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وفيهم يعسوب الإسلام علي بن أبي طالب، وثلاثتهم في مكانتهم من رسول الله ﷺ ومن المجتمع المسلم من لا ينكر فضلهم في مواقف البطولات.

ولما رأى الزبير هذا الصنيع من رسول الله ﷺ وهو يعلم أن رسول الله ﷺ لا يصنع شيئًا إلا لحكمة - قال: والله لأنظرن ما

يصنع أبو دجانة، فاتبعته فجعل يفلق هام المشركين بالسيف، ولا يلقى مشركًا إلا علاه بالسيف فقضى عليه، فعرف الزبير حكمة اختيار رسول الله ﷺ أبا دجانة بطلًا لسيفه وتمييزه به دون سائر أصحابه رضي الله عنهم.

بطولة فدائية وشجاعة إيمانية:

وهذا بطل من أشجع وأجرأ أبطال غزوة أحد، يمثل في شجاعته وبطولته لونًا من أصدق ألوان الرسوخ في الإيمان والعقيدة، والحب لرسول الله ﷺ، وفدائه بروحه.

غاب أنس بن النضر عن شهود بدر، فشق عليه ذلك، فجعل يقول: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ في قتال المشركين غِبتُ عنه، ولئن أراني الله مشهدًا فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع، فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أحد، فاستقبل وهو في طريقه إلى القتال سعد بن معاذ، فقال له: يا أبا عمرو، واهًا لريح الجنة، أجده دون أحد، ثم خاض المعركة، فقاتل المشركين حتى قُتل، فوُجد في جسده بضعٌ وثمانون من ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم حتى خفيتْ معالم بدنه وصار لا يعرف من كثرة الجراح والتمثيل به، فقالت أخته الربيِّع بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه، وكان كثيرٌ من أهل العلم يرون أن قول الله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب: ٢٣) نزل في أنس بن النضر وأمثاله من الأبطال الفدائيين.

الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله لا يتوقف على وجود النبي ﷺ:

وفي دلائل البيهقي عن طريق ابن أبي نجيح عن أبيه، قال: مر رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الأنصار، وهو يتشحط في دمه، فقال المهاجريُّ للأنصاري: يا فلان أشعرتَ أن محمدًا قد قُتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمدٌ قد قُتل فقد بلَّغ الرسالة، فقاتلوا عن دينكم. فأنزل الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤) قال الإمام ابن كثير: ولعلَّ هذا الأنصاري هو أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنهما.

الإخلاص في الجهاد يفتح بصيرة المجاهد حتى يرى ما أعد الله للشهداء:

وفي صحيح البخاري عن أنس بن مالك، قال: غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله غبتُ عن أول قتالٍ قاتلتَ فيه المشركين، والله لئن أشهدني الله قتال المشركين ليرين الله ما أصنع، فلما كان يوم أَحد انكشف المسلمون، فقال أنس بن النضر: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -يعني المشركين- ثم تقدم فاستقبل سعد بن معاذ، فقال أنس بن النضر: أي سعد، هذه الجنة ورب أنس، أجد ريحها دون أحد، فقال سعد بن معاذ: فما استطعت ما صنع، فقاتل -أي حتى قتل- قال أنس بن مالك: فوجدنا فيه بضعًا

وثمانين ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، وقد مَثَّل به المشركون فما عرفتْه أختُه الربيع بنت النضر إلا ببنانه، قال أنس بن مالك: كنا نرى أو نظن أن هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٣).

أنس بن النضر ممن أخلصهم الله له يجيبهم إذا أقسموا عليه:

وكان أنس بن النضر -نضَّر الله وجهه- إلى جانب شجاعته الخارقة وبطولته الفدائية الصادقة راسخ الإيمان رسوخًا عميقًا جعل معرفته بالله تعالى معرفة شهودية، يشهد بها فضل الله تجري به مقاديره، كأنما يجري فيها مع هذه المقادير في فجاج الغيب، وقد رزقه الله تعالى بهذا الإيمان ثقة في الله تعالى واعتصامًا به، بلغا به مقام المقسمين على الله فيجيبهم إلى مطلوبهم.

أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك قال: كسرت الربيِّع -أي أخت أنس بن النضر- ثنيَّة جاريةٍ من الأنصار، فطلبَ القومُ القصاص، فأتوا النبي ﷺ فأمر ﷺ بالقصاص، فقال أنس بن النضر: لا، والله لا تُكسَر ثنيتها -يعني ثنية أخته الربيع قصاصًا- يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «كتاب الله القصاص» فرضي القوم وقبلوا الأرش، فقال ﷺ: «إنَّ من عباد الله من لو أقسم على الله لأبرَّه».

وذكر ابن إسحاق أن أنس بن النضر جاء إلى عمر وطلحة في رجال من المهاجرين والأنصار، قد ألقوا بأيديهم، فقال لهم: ما

يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد ﷺ، قال أنس: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه، ثم استقبل العدو فقاتل حتى قتل رضي الله عنه.

هذا اللون من رسوخ الإيمان وثبات اليقين اللذين تحدث بهما التاريخ الإسلامي عن هذا البطل هو الذي ارتفع بالمجتمع المسلم إلى منزلة قيادة الإنسانية إلى آفاق حضارة الإيمان بالله وإخلاص الدين كله له، حتى تبوأ هذا المجتمعُ الذروة في إصلاح الحياة وتطهيرها من أوضار الجاهليات الضالة الظالمة، وهو الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وهذه البطولة التي ترى بعين الشهود أن الموت -استشهادًا في سبيل الله لإعلاء كلمته- إنما هو تجديد للحياة في دار الخلود، والنعيم المقيم.

بطولة طلحة بن عبيد الله:

بيان معنى (أوجب فلان) وقول النبي ﷺ «أنتم شهداء الله على خلقه»:

حسبه في الفضل والشرف أنه أحد المبشرين بالجنة من الصادق المصدوق ﷺ، وحسبه قول النبي ﷺ فيه: «أوجب طلحةُ الجنة» هكذا ذكره القرطبي بزيادة لفظ الجنة، وفي بعض الروايات الاقتصار على لفظ: «أوجب طلحة» والشراح هم الذين يذكرون لفظ (الجنة) عند شرحهم للحديث؛ لأن عبارة (أوجب فلان) معناها أنه فعل فعلًا عظيمًا استوجب به جزاءً يوائمه، فإذا كان هذا القولُ واردًا في حق رجل مؤمن بَلْه صحابيًا كان معناه وجبت له

الجنة؛ لأنها الجزاء الذي يوائم الأفعال العظيمة في الإسلام، وإذا كان هذا القول في رجل كافر كان معناه وجبت له النار.

ويشهد لذلك حديث: «أنتم شهداء الله على خلقه» إذ أثنى الصحابة على رجل خيرًا فقال ﷺ: «وجبتْ» وأثنوا على آخر شرًا فقال: «وجبت» فقال الصحابة: ما وجبت يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أثنيتم على الأول خيرًا فوجبت له الجنة، وأثنيتم على الثاني شرًا فوجبت له النار، أنتم شهداء الله على خلقه».

وهذا الثناء على الأمة الإسلامية مذكور في القرآن في مواضع من سوره، فمنها قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (البقرة: ١٤٣) ومنها قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ (الحج: ٧٨) فلفظة (الجنة) في حديث طلحة يتطلبها المعنى، فإن كانت من ألفاظ الحديث فهي توضيح للمراد، وإن لم تكن من ألفاظ الحديث فهي من قبيل المدرج، أدرجها أحد الرواة لانسياق المعنى إليها.

طلحة يفدي رسول الله ﷺ بنفسه:

وقد قال النبي ﷺ ذلك في حق طلحة رضي الله عنه، حينما ثبت معه يوم أحد عند اشتداد الموقف وتولي المسلمين إثر صرخة الشيطان بأن محمدًا قتل، فوقف بين يدي رسول الله ﷺ، يدفع عنه ويقيه بنفسه، ففي حديث عائشة رضي الله عنها قالت في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ الآية (الأحزاب: ٢٣)،

منهم طلحة بن عبيد الله، ثبت مع النبي ﷺ حتى أصيبت يده، قال النبي ﷺ: «أوجب طلحة الجنة» ومن حديثها أيضًا عند الطيالسي قالت: كان أبو بكر إذا ذُكر يومُ أحد قال: كان ذلك اليوم كله لطلحة، ثم أنشأ أبو بكر يقول: كنت من أول من أفاء يوم أحد، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل الله دونه -أي دون رسول الله ﷺ- فقلت: كن طلحة، حيث فاتني ما فاتني، فقلت: يكون رجلًا من قومي أحبَّ إلي، وبيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله ﷺ منه وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح، فانتهينا إلى رسول الله ﷺ، وقد كُسرت رباعيته، وشُجَّ في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، فقال رسول الله ﷺ: «عليكما صاحبكما» يريد طلحة، وقد نزف، فلم نلتفت إلى قوله، وذهبتُ لأنزع ذاك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسمتُ عليك بحقي لما تركتني فتركته، فكره تناولها بيده، فيؤذي رسول الله ﷺ، فأزم عليها بفيه فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبتُ لأصنع ما صنع، فقال: أقسمت عليك بحقي لما تركتني ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة من أحسن الناس هَتَمًا، فأصلحنا من شأن رسول الله ﷺ، ثم أتينا طلحة فإذا به بضع وسبعون من بين طعنة ورمية وضربة، وإذا قد قطعت أصبعه، فأصلحنا من شأنه.

شجاعة أبي طلحة وصبره على البلاء بين يدي رسول الله ﷺ:

وهذا لون من الشجاعة الجامعة لفضائل الرجولية، وخصائص

البطولـة الإيمانيـة والشـجاعة النفسـية، تزكيها القـوة البدنية، وتعينها الدربة على القتال والصبر في حومة النضال.

لمَّا انهزم المسـلمون المجاهدون يوم أحد، وولَّوا عن رسـول الله ﷺ إثـر إخـلاء جمهـور الرمـاة لمواقفهـم ونزولهـم للغنائم وقـد صـرف الله وجوههم عـن صمدهم، والتبسـوا بالمشـركين والمسـلمين حتى صار المسـلم يضرب المسـلم وهو لا يشـعر، وكان الشـيطان قد أرجف بقتل رسـول الله ﷺ وأحاط المشركون برسـول الله ﷺ، وتوالـت عليـه ضرباتهم وطعناتهـم، وهو ﷺ ثابت في موقفه لا يزول عنه شبرًا -وكان ﷺ يرد على المشركين ضرباتهم وطعناتهم، ويرميهم بقوسـه حتى تشـظت في يده- لم يكـن معه في هذا الموقف سـوى هذا البطل الفدائي الشـجاع أبي طلحة الأنصاري، يتلقى عنه الضربات ويسـور عليه بنفسـه ليقيه سهام الأعداء وهي تتساقط وابلًا، لا تنقطع.

روى الإمـام أحمد رحمه الله، قال: حدثنا عفـان، أخبرنا ثابت عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وكان ربيب أبي طلحة، زوج أمه أم سليم بنت ملحان الأنصارية، أن أبا طلحة كان يرمي بين يدي رسـول الله ﷺ يوم أحد، والنبي ﷺ خلفه وهو متترس عليه، وكان أبو طلحة راميًا، وكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ شخصه ينظر أين يقع سهم أبي طلحة، فيرفع أبو طلحة صدره، ويقول لرسول الله ﷺ: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك، وكان أبو طلحة يسـور على رسـول الله ﷺ نفسـه، ويقول له: إني جلد يا رسول الله، فوجهني في حوائجك ومرني بما شئت.

وفـي صحيح البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: لما كان

يــوم أحــد انهزم الناس عن النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي رســول الله ﷺ مجوِّب عليه بجحفة له، وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شــديد النزع كَسر يومئذ قوسين أو ثلاثًا، وكان الرجلُ يمر به معه الجعبة مــن النبل، فيقول رســول الله ﷺ: «انثرها لأبي طلحة» ويشــرف النبــي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول له أبــو طلحة: بأبي أنت وأمي، لا تشــرف يصيبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك، ولقد وقع السيف من يدي أبي طلحة مرتين أو ثلاثًا.

غشْي النعاس أبا طلحة والحرب مشتعلة:

وسقوط السيف من يدي أبي طلحة وهو في غمرات الوغى مَعْلم من معالم شــجاعته واطمئنانه وثبات قلبــه، وقد تحدث أبو طلحة عن نفسه بذلك كما رواه البخاري فقال: كنت فيمن تغشَّاه النعاس يوم أحد حتى ســقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط فآخذه، ويسقط فآخذه، وحديث أبي طلحة عن نفسه بهذا من باب التحدث بنعمة الله وشــكر الله تعالى علــى امتنانه بهذه المنــة العظمى في تثبيت قلوب المؤمنين، وهم يخوضون أشرس معركةٍ مجاهدين في سبيل الله لإعــلاء كلمته، كما قال تعالــى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

والنعاس في الحرب شــجاعة واطمئنان، وصبر وثبات، وإيمان راسخ، ويقين لا يداخله جزع ولا يهزه هلع.

يقول ابــن الأثير: كان أبو طلحة من الشــجعان المذكورين في الصحابة ومن الرماة المشــهورين، وله يوم أحد مقام مشهود، كان

يقـي النبي ﷺ بنفسـه، ويرمي بين يديه، ويتطـاول بصدره ليقي رسول الله ﷺ ويقول: نحري دون نحرك، ونفسي دون نفسك.

وأخـرج ابن عبـد البر في الاسـتيعاب عن أنس بـن مالك رضي الله عنه، قـال: إن رسـول الله ﷺ قال يوم حنيـن: «من قتـل كافرًا فله سَـلَبُه»(١٦) فقَتَل أبو طلحة يومئذ عشـرين رجلًا من المشـركين، وأخذ أسلابهم.

ويقول أنس بن مالك: كان أبو طلحة يجثو بين يدي رسـول الله ﷺ في الحرب، ويقول:

نفسي لنفسك الفداء   ووجهي لوجهك الوقاء

ثـم ينثر كنانته بيـن يديه، فقال رسـول الله ﷺ: «لصوتُ أبي طلحة في الجيش خيرٌ من مئة رجل».

بطولة نسيبة بنت كعب الأنصارية:

نسيبة بنت كعب أم عمارة تشهد مع رسول الله ﷺ أكبر وأكثر مشاهده:

كانت أم عمارة، نسـيبة بنت كعب الأنصارية النجارية المازنية من أسـبق وأشهر السـابقين والسـابقات في الأنصار إلى الإسلام، وأكثرهـم وأكثرهـن مشـاهد مع رسـول الله ﷺ، شـهدت العقبة الكبـرى مع زوجها وولديهـا حبيب وعبد الله ابنـي زيد، وبايعت رسول الله ﷺ يومئذ.

ذكـر الواقدي عن ابن أبي صعصعة قال: قالت أم عمارة: كانت

(١٦) سَلَبُ القتيلِ: ما يكون معه من سيف أو رمح أو متاع أو مال. (المجلة)

الرجال تصفق على يد رسول الله ﷺ ليلة العقبة، والعباس آخذ بيد رسول الله ﷺ، فلما بقيت أنا وأم سبيع نادى زوجي عربة بن عمرو: يا رسول الله، هاتان امرأتان حضرتا معنا، يبايعنك، فقال رسول الله ﷺ: «وقد بايعتهما على ما بايعتكم عليه، إني لا أصافح النساء».

ثم شهدت نسيبة أُحُدًا مع زوجها وولديها، ثم شهدت بيعة الرضوان والحديبية وخيبر والقضية والفتح وحنينًا، وعاشت حتى شهدت اليمامة مع ابنها عبد الله، فقاتلت في هذه الموقعة حتى قطعت يدها وجرحت يومئذ اثني عشر جرحًا بين طعنة وضربة.

حبيب بن زيد ولد أم عمارة كان مثلًا في الصبر:

وولدها حبيب بن زيد كان في إيمانه مثلًا شَرودًا، أرسله رسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب لعنه الله، فأخذه مسيلمة ليقتله وعرَّضه لامتحان إيمانه وصدق يقينه، في صورة من البلاء كانت من أفجر ما سجلته الحياة الطاغية، فكان إذا سأله: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم، وإذا قال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال حبيب بن زيد: أنا أصم لا أسمع، وكرر ذلك مسيلمة مع حبيب وهو ثابت اليقين راسخ الإيمان لا يتزعزع ولا يتحول، فلما يئس منه مسيلمة وعلم رسوخ إيمانه وصلابة يقينه وقوة صبره على تحمل أبشع البلاء قتله قتلة شنيعة، لا يقدم عليها إلا أفجر طاغوت من طواغيت الكفر والفجور، فجعل كلما سأله ويجيب حبيب بجوابه الذي لا جواب غيره قطع منه عضوًا حتى أتى عليه عضوًا عضوًا، وحبيب ينظر إلى قتلته الشنيعة وهو قرير العين، رضيّ

القلب، هانئ النفس بهذا الاستشهاد في سبيل الله الذي انفرد به، فلما بلغ أمَّه نسيبة بنت كعب الأنصارية الخزرجية صنيعُ مسيلمة الكذاب بولدها نذرت ألَّا يصيبها غسل حتى يُقتل مسيلمة، فلما جاء يوم اليمامة في وقائع الردة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه شمرت عن عزيمة بطولية ينوء بأثقالها شجعان الأبطال، فشهدت ذلك اليوم مع ابنها عبد الله، شقيق حبيب قتيل مسيلمة، وخاضت مع أبطالها وقاتلت قتالًا شديدًا حتى أبرَّ الله نذرها، وقُتل مسيلمة الكذاب لعنة الله، قتله وحشي بن حرب بالحربة التي قتل بها حمزة سيد الأبطال والشهداء يوم أحد، وقيل إن مسيلمة الكذاب لعنه الله قُتل بسيف رسول الله ﷺ بيد البطل أبي دجانة رضي الله عنه.

ولما شهدتْ أم عمارة: نسيبة بنت كعب رضي الله عنها أحدًا أبدت من الشجاعة الخارقة والفدائية الصادقة في الدفاع عن رسول الله ﷺ وهو متعرض لطعنات الأعداء وضرباتهم حينما ولَّى عنه جمهرة المجاهدين، ووقف وحده لا يزول عن مقامه ولا يحول، ما يعجز الأبطال المغاوير عن مثله.

بطولة أم عمارة في غزوة أحد وشهادة النبي ﷺ لها بذلك:

قالت أم سعد بنت سعد بن الربيع: دخلتُ على أم عمارة، فقلت: حدثيني خبرَك يوم أحد، فقالت نسيبة رضي الله عنها: خرجت أول النهار ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال وأذبُّ عن رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه، والريح والدولة للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزتُ إلى رسول الله ﷺ، فجعلت أباشر القتال، وأذبُّ عن رسول الله ﷺ

بالسيف، وأرمي بالقوس حتى خلصت إليَّ الجراحة، قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحًا له غور أجوف أصابها به ابن قمئة أقمأه الله، لما ولَّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمد، فلا نجوتُ إن نجا، قالت أم عمارة، فاعترضت له لأمنعه أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربني هذه الضربة، ولكن ضربته على ذلك ثلاث ضربات، ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وفي شرح المواهب للزرقاني عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول -أي في حق أم عمارة وموقفها من الذبِّ عنه ﷺ-: «ما التفتُّ يوم أحد يمينًا ولا شمالًا إلا وأراها تقاتل دوني».

وهذه شهادة صدق، هي أعظم شهادة من أعظم مخلوق شهيد، تتوج هامة الشرف والفضل والشجاعة والبطولة لهذه الفدائية العظيمة، وتضعها في مصاف البطولة الإسلامية الخالدة في تاريخ الحياة، وتضعها في سجل الفدائية حرفا في أول سطر من سطور الفداء الإيماني، بل تضعها نقطة من النور في مشرق شمس الهداية ورسوخ الإيمان وقوة اليقين.

ونحن إنما ذكرنا نماذج من البطولات التي كشفت عنها محنة أُحُد في شدائدها وقسوة أحداثها على المجتمع المسلم؛ لأننا قصدنا ضرب المثل وذكر الشاهد، ولم نقصد إلى الاستيعاب في الروايات، وذكر البطولات المشهرة في تاريخ الغزوات، فتلك بطولات غامرة متعالمة، جعلت من حياتها كلها شواهد منها، لها، وعليها.

سيد الشهداء حمزة كانت بطولته أرفع بطولات الأبطال:

ولا نستثني من ذلك بعد ما ذكرناه من النماذج شيئًا سوى قصة مقتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وأرضاه، لما كان لها من الوقع الشديد على رسول الله ﷺ، مما ضاعف آلامه ﷺ إلى جانب ما أصيب به من جراحات بالغات الألم في وجهه الشريف ﷺ، ولما فيها من ثقل وزن الإيمان بالنسبة إلى جميع الأعمال، وأنه يجبُّ ما قبله مهما كان فيه من شدة السوء والقبح كما هو واضح في قبول إسلام وحشي.

ولما فيها من عظيم الصبر الذي احتواه رسول الله ﷺ وهو ينظرٍ إلى عمه وصفيه أسد المجتمع المسلم كله، مجندلًا، وممثلًا به أشنع تمثيل، فيقسم ليمثلن بسبعين من المشركين إذا أظفره الله بهم، فيرده الله تعالى عن عزيمته إلى الاعتصام بصبره العظيم، ويأبى عليه إلا العدل السويّ، وينزل عليه وهو قائم لم يبرح مكانه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ (النحل: ١٢٦).

فيرضى رسول الله ﷺ أكمل الرضا، ويسلِّم أجمل التسليم لأمر الله تعالى، ويصبر على مصابه في عمه كما صبر على مصابه في نفسه ﷺ.

ونحن نسوق القصة من صحيح البخاري منسقةً مختصرةً، قد يدخل فيها شيء من الروايات الأخرى يتطلبه توضيح المعنى ويستدعيه السياق، وهي كما جاءت في حديث وحشي، وكما

زعم أنه حدث بها النبي ﷺ إذ جاء ليسلم فسأله النبي ﷺ فحدثه.

قصة مقتل حمزة سيد الشهداء:

قال وحشي: إن حمزة قَتل طعيمة بن عدي بن الخيار ببدر، فقال لي مولاي جبير بن مطعم: إنْ قتلتَ حمزة بعمي فأنت حرٌّ، فلما خرج الناس عام عينين -أي لغزوة أحد- خرجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال خرج سباع بن عبد العزى الخزاعي، فقال: هل من مبارز فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أم أنمار، أتُحادّ الله ورسوله، ثم شد عليه حمزة، فكان سباع كأمس الدابر، أي صيره عدمًا، ثم قال وحشي: وكمنتُ تحت صخرة، فلما دنا -أي حمزة- مني رميته بحربتي فأضعها في ثُنَّتِه -أي عانته- وعند الطيالسي: فجعلت ألوذ من حمزة بشجرة، ومعي حربتي، حتى إذا استمكنت منه هزّزت الحربة حتى رضيت منها، ثم أرسلتها فوقعت بين ثندوتيه[١٧]، وذهب ليقوم فلم يستطع، فكان ذلك آخر العهد به.

نبوّ البلاد بوحشي بعد قتله حمزة وقبول إسلامه فيما بعد:

فلما رجع الناس إلى مكة رجعت معهم فأقمت بمكة، حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا -أي أهل الطائف- رسلًا إلى رسول الله ﷺ، فقيل لي: إن رسول الله ﷺ لا يهيج الرسل ولا يزعجهم، فخرجت معهم حتى قدمت على

(١٧) الثَّنْدُوَة ما استدال من لون أسود حول حلمة الثدي. (المجلة)

رسـول الله ﷺ فلما رآني قال: «أنت وحشـي؟» قلت: نعم، قال: «أنـت قتلت حمزة؟» قلت: قـد كان من الأمر ما بلغك. وعند ابن إسـحاق من رواية يونس بن بكير، فقيل: هذا وحشـي، قال ﷺ: «فَلإِسـلامُ رجلٍ واحدٍ أحـبُّ إليَّ من قتل ألف كافـر» ثم قال: ﷺ «فهل تسـتطيعُ أن تغيِّـب وجهَك عنِّي؟» فخرجـتُ، فكنت أتقي أن يراني رسـول الله ﷺ، وعند الطبراني فقال رسول الله ﷺ: «يا وحشيّ اخرج فقاتل في سبيل الله كما كنتَ تصد عن سبيل الله».

فلما كان من أمرٍ مسيلمة ما كان انبعثتُ مع البعث -أي لمقاتلة مسـيلمة الكذاب- فأخذتُ حربتي، فقلـت: لعلِّي أقتله فأكفؤ به حمـزة، فخرجت مـع الناس، فـإذا رجل قائم في ثلمـة جدار كأنه جمـل أورق ثائر الـرأس، فرميته بحربتي فأضعهـا بين ثدييه حتى خرجـتْ من كتفيه، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسـيف علـى هامته، فربـك أعلم أينا قتله، فإن أكُ قتلتـه، فقد قتلت خير الناس وشر الناس.

معالم من منهج الرسالة في قصة وحشي:

وفي هذه القصة معالم مضيئة لمنهج رسـالة الإسلام، مما يدل علـى أن محن الابتـلاء في هذه الرسـالة الخالـدة محفوفة بالمنح الربانية التي تدفعها في مسـيرتها إلـى أهدافها الحميدة وغاياتها النبيلة.

فإذا جاء في القصة من رواية ابن إسـحاق أن بعض الصحابة لما رأوا وحشـيًا قالوا: هذا وحشي، فيقول النبي ﷺ ليشعرهم أنه لا بأس عليه إذ جاء مسـلمًا: «فلإسـلام رجلٍ واحدٍ خيرٌ من قتل ألف

كافـر » ومعنــى ذلك أن النبــي ﷺ لا يريد من أصحابــه أن يهيِّجوا وحشيًا ولا أن يزعجوه وقد جاء مسلمًا ، والإسلام يجبُّ ما قبله من كفرٍ مهما كانت آثاره وجرائره .

وفــي هذا دليل على أن رســالة الإســلام إنما تســتهدف الهداية والعــدل والرحمة والإخــاء ، ولا تقيم وزنًا لغيــر الحق ، ولا ترضى عــن أحقــاد الثــأر الجاهليــة والله تعالــى يقول لنبيــه ﷺ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ ﴾ (الأنفــال : ٣٨) ويقول له ممتنًا برسالته على العالمين : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ (الأنبيــاء : ١٠٧) تجمِّع الناس في ظلال الهدى والتعــاون على البر والتقوى ولم نرســلك معنتًا ، ولا مثيرًا لأحقاد الضغن بين أفراد وجماعات المجتمع الإنساني .

وإذا جــاء فــي القصة مــن روايــة الطبراني قوله ﷺ لوحشــي : « اخــرج فقاتل في ســبيل الله كمــا كنت تصد عن ســبيل الله » كان ذلك من قبيل التوجيه الإرشــادي إلى مكفرات ما سلف من الكفر ومحــادة الله تعالى ورســوله ﷺ ، وذكر القتال في ســبيل الله بيان للأمــر الأنســب في التكفير ، وفيه حض مــن النبي ﷺ لإعلاء راية الجهاد ، ولعل مخرج وحشــي إلى اليمامة وقتله مســيلمة الكذاب كان أثــرًا من آثار توجيــه النبي ﷺ إلى أفضل مــا يمحو الخطايا ، ويحت الذنوب ، ويطهر من الآثام .

وقد أدرك وحشــي ذلك فقال حين قتل مسيلمة الكذاب : قتلتُ خيرَ الناس يعني سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، وقتلتُ شرَّ

الناس يعني أخبث الفجار من الكذابين، مسيلمة الحنفي صاحب اليمامة، وقد صدق وحشيٌّ في هذا القول.

أما قول النبي ﷺ لوحشي: «فهل تستطيع أن تغيِّب عني وجهك؟» فالمقصود به أن النبي ﷺ أراد أن لا تحرِّك رؤيتُه وحشًيا في نفسه ذكريات حادث القتل وما تبعه من تمثيل شنيع بشع، فتثير عنده حزازات بشرية، ربما لا يكون من المستطاع منعها ومقاومتها إلا بشيء من العسر والعنت الشديد، مما قد يشغل النبي ﷺ ويقلقه.

وقد يؤدي ذلك إلى تحريك الحزازات النفسية عند من لا يملك ثورة نفسه إذا تمثلت له أحداث قتل حمزة، وبشاعة التمثيل به إلى أن يحدث في صفوف المجتمع المسلم ما لا تحمد عقباه من الأمور المنافية لسماحة الدعوة وتسامحها في سبيل وحدة كلمة المجتمع المسلم.

تحليلُ لما في غَزوَة أُحُد

من تمحيص

كانت غزوة أحد تمحيصًا للمؤمنين، وامتحانًا لقوة إيمانهم، وتحقيقًا للعقيدة التوحيدية في أكمل معانيها، وأرفع مراتبها، وأصفى معالمها، وأصدق مراميها وأهدافها، وأحكم منازلها، وأخلص صورها، وأضوأ منائرها، وأهدى سبلها، وأرشد مراشدها، وأزكى غاياتها ومقاصدها.

إن العقيدة التوحيدية هي محور رسالات جميع الأنبياء

والمرســلين، ولم يرسل الله تعالى رسولًا إلا كان قوله لقومه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وعبادة الله تشمل كل طاعة لا ينبغي أن تكون إلا لله جل شـأنه، وهذا هو معنى إسـلام الوجه لله تعالى، وإخلاص الدين كله له وحده عز شأنه، وهو يقتضي اختصاص رسل الله صلـوات الله عليهم بأعظـم درجات الحب والاتباع والتسـليم لجميـع ما يبلِّغونـه عن الله تعالى مـن الوحي، تسـليمًا لا يداخله حـرج في النفس ولا يخالجه شـيء من حـزازات النفوس وأهوائها ورغائبهـا؛ لأنهم رسـل الله المبلِّغون عنه شـرائعه التـي تعبّد بها عبادَه، ولأنهم هم الوسيلة الموصِّلة إلى رضاء الله تعالى لمتابعتهم في جميع ما جاءوا به من عند الله، وهم الباب الوحيد الذي يدخل عن طريقه جميع الخلق إلى منازل الإيمان بالله إلهًا واحدًا لا شريك له في تدبير ملكه وملكوته.

وهم الذين يقفون بالمؤمنين على مشـارف العبودية لله وحده، يأخـذون بحُجَزهـم أن يتقذفوا إلـى مهاوي الضـلالات والهوى، فتتحكم فيهم عواطفهم التي قد تجمح، فتجعل من الرسـول أكثر من عبدٍ اصطفاه الله لرسـالته وكلفه تبليغها إلى خلقه و﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ (الأنعام: ١٢٤)

هـذا هو المنهـج الإلهي الذي جعلـه الله تعالـى طريقًا لمهبط رسـالاته وتبليغها، والرسل بعد ذلك وقبل ذلك بشرٌ، يعتريهم ما يعتري سـائر البشر، وهم معصومون عن الإتيان بأي عمل لا يتفق مع طبيعة رسـالاتهم، وهم صلـوات الله عليهم متفاضلون في إطار هذا المنهـج الربّاني، وخيرهـم أعمهم رسـالةً، وأدومهم هداية،

وأشملهم شـرائع، وأكثرهم يوم القيامة تابعًا، وأقربهم إلى منازل الشهود منزلة، وهي منزلة خاتمهم نبينا محمد ﷺ.

التزيد العاطفي في حب النبي ﷺ لا يدخل في منهج الرسالة:

هذه هي الصورة المجملة للرسالات الإلهية، فإذا التزم أتباعهم بهـا كانوا خيـر جماعة أخرجت للنـاس، وإذا انحرفوا عنها كانوا بمعـرض العقوبـة من الله تعالـى ليردهم إلى سـاحة صدق الإيمان ونقائـه، ويربِّيهـم على التـزام المتابعة لما جاءهم به الرسـل من الهدايـة وشـرائع العبوديـة لله وحده دون تزيـد أو تنقص ليكونوا أسوةً لمن يجيء بعدهم من الأجيال والقرون.

كان موقـف الصحابـة فـي مبـدأ غـزوة أُحُـد موقفًـا يغلـب عليـه الحـب العاطفـي:

وقد كان موقف أصحاب رسول الله ﷺ من هذا المنهج في غزوة أحـد موقفًا مشـوبًا بحب العاطفـة التي قادتهم بعيـدًا عن مهيعه، وسـلكت بهم مسـلك المبالغة في الحب العاطفي؛ مما كان سببًا فيمـا أصابهم في هذه الغزوة من شـدائد الأزمـات، وفواجع البلاء التي كان من أشدِّها أثرًا في عواقب هذه الغزوة أنهم ربطوا إيمانهم وعقيدتهم ودعوتهم إلى الله لإعلاء كلمته بشخص رسول الله ﷺ، إذ لم يكادوا يسـمعون صرخةَ الشـيطان بأن محمدًا ﷺ قُتل حتى انفرط عقدهم وتفرّقوا منهزمين، لايلوون على شـيء من شـدة ما أصابهـم من المفاجأة والدهش، وقسـاوة ما نـزل على قلوبهم من الغـم لسـماعهم هذه الكلمـة الكاذبة التي كادهم بها الشـيطان،

لينشــر الفشــل بينهم، ويوهــن عزائمهــم، ولولا وجــود مَنْ ربط الله علــى قلوبهم فثبَّتهــم -من أضراب أنس بن النضر، وســعد بن الربيع، وســعد بن معاذ، ونسيبة بنت كعب المازنية، وأبي طلحة زيد بن ســهل النجاري، وطلحة بن عبيد الله، وأبي دجانة- لكانت العاقبةُ أوخَمَ وأشــنع مما كان؛ لأن هؤلاء الأبطال راسخي الإيمان قالوا للذين أذهلتهم المفاجأة: إذا كان محمد ﷺ قد قُتل فإن ربّ محمدٍ لم يُقتَل، فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمد ﷺ.

الربط بين الرسالة وبقاء شخص الرسول ﷺ:

فهــذا الربط بين عقيدة الإيمان بالله ربًا معبودًا وحده وبين بقاء شــخص النبي ﷺ خالــدًا فيهم خالطه الحب المغلــوب بالعاطفة، فزيّدته، وهذا التزيد في الحب العاطفي هو الذي جعل بقاء رسول الله ﷺ بين أصحابه غايةً أضفت عليه ﷺ شــائبة الخلود بينهم لا يلحقــه الموت، بل يبقى فيهم يقودهــم من نصر إلى نصر، ويدبِّر لهم أمورهم حتى يكون آخرهم رحيلًا عن الدنيا، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم نزل بالإســلام والمســلمين ما هاضهم وزلزل مفاصلهم، وغطَّى على عقول جماهيرهم بنزول أبأس كارثةٍ نزلت بهم بوفاة رسول الله ﷺ فأُخذ عمر رضي الله عنه عن مشاعره ومداركه، واســتولى عليه الدهش المذهل، حتى جاء الصدِّيق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فوجــد عمر يرعد ويزبــد، ويوعد النــاس بالويل والثبور، ويقــول: إن رســول الله ﷺ لم يمُتْ، وإنه خــارج إلى من أرجف به وقاطع أيديهم وضــارب أعناقهم وصالبهم، فطلب منه أبو بكر أن يسكت ويسمع فأبى، فتركه أبو بكر وتوجه إلى الناس فقال لهم:

إن الله قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، فمن كان يعبد محمداً فقد مات إلهُه الذي كان يعبده، ومن كان يعبد الله لا شريك له فإن الله حي لا يموت.

وقد اعتذر عمر رضي الله عنه عن قوله، وصحّح موقفه، بعدما سمع الآية الكريمة فقال: أيها الناس إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة، ما كانت إلا عن رأيي وما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سَيَدْبُرنا حتى يكون آخرنا، وإن الله تعالى قد أبقى فيكم كتابه الذي هدى به رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم لِما كان هداه له.

ولقد كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في هذه النازلة القاصمة للظهور المحشرجة للصدور -التي أصيبت بها الحياة كلها بمن فيها وما فيها بَلْه المسلمين الذين سحقتهم هذه الكارثة المدمِّرة لولا لطف الله بدينه وعباده المؤمنين، والتي لن يصابوا بمثلها أبد الآبدين- موقفًا بلغ قمة الذروة من الشجاعة النفسية والثبات والصبر، والعلم بالله تعالى ومجاري أقداره في غيبه، ومعرفته بحقيقة الرسل وعلمه بمكانه في بشريته وروحانيته، وإدراكه لما يتطلبه الموقف من التجلد لعظيمات الأحداث والسرعة في اتخاذ الموقف الحاسم، والعمل لحفظ الدين ووقاية المسلمين شرَّ جائحات الفتن، وجامحات النوازل، ومزالق الأفكار، وتجنيبهم غوائل الفرقة والتمزق، وقد اندسّ فيهم شرار المنافقين، وتربّص

بهم أخابث اليهود الدوائر، ووهنت عزائم الدهاة، وضعفت قدرات القادرين، وتخلخلت إرادات أُولي الحزم الصليب، ووهنت شجاعة القلوب، واضطربت في مسارها مدارك العقول، وأظلمت الآفاق، وماج الناس، وعُمِّيت المسالك على السائرين، وغُيِّبت المعالم على الناظرين، وانسدت نوافذ المخارج، وذهب الدهش بالمشاعر، واستحوذ الإزعاج على الإحساسات، وطاشت الأفكار، وماتت الكلمات، وخرست الألسنة إلَّا من هذيان أعقل العقلاء.

وجاء أبو بكر من السُّنح خارج المدينة، ولحكمة مّا استأثر الله بعلمها، لم يقدّر له أن يشهد وفاة رسول الله ﷺ، فرأى وسمع، فتكلم فكان الحكيمَ الملهَم والعليم المعلَّم، والعيلم المعلِّم، فسكت المتكلمون الذين كانوا يقولون وهم في غمرة المفاجأة والدهش ما يقولون، واستمع الناس إلى الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه وهم في وجوم الصبر الحزين.

واستنطق أبو بكر القرآن الحكيم فأسعفه بما يوازن أحزانه، التي كان سكونها إلى الرضا بقضاء الله أبلغ في التعبير عن صدقها من فلتات الدهش، ومسكتات الألسنة، فقال رضي الله عنه بعد أن كشف عن وجه رسول الله ﷺ وقبَّل جبينه، وعرف يقينًا أن اليقين الذي لا شك فيه قد نزل بساحة النبوة فألمّ برسول الله ﷺ ونقله عن دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، فبكى وصاح: وانبيَّاه، واخليلاه، واصفيَّاه، وخرج إلى الناس وهم في حالة من الهرج والمرج والغم والأحزان والدهش والذهول تعجز العبارة عن وصفها.

ووجد عمر -وهو من هو- يتكلم حتى ازبدَّ شِدْقاه، والناس من حوله يسمعون له، ولا يفهمون عنه، فقال له أَبو بكر: اجلس يا

عمر، فأبى عمر أن يجلس، فتركه الصدِّيق، ثم تشهّد، فأقبل عليه الناس وتركوا عمر يُرعِد ويُزْبِد، ويتهدّد ويتوعّد، ثم قال أبو بكر: أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)

وهنا أيقن الناس أن رسول الله ﷺ قد مات، حينما تلا عليهم أبو بكر هذه الآية، فقال قائل: والله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية أنزلت حتى تلاها أبو بكر، وقال عمر رضي الله عنه، والله ما هو إلَّا أن سمعتُ أبا بكر يتلوها فعُقرتُ حتى والله ما تُقلُّني رجلاي وأنا قائم حتى خررتُ إلى الأرض، وأيقنت أن النبي ﷺ قد مات، فنشج الناس يبكون.

هذا لون من الشجاعة انفرد به الصديق أبو بكر رضي الله عنه لم يعرف في التاريخ لأحدٍ سواه؛ لأنه رضي الله عنه كان فيه أثبت الناس قلبًا، وأقواهم جأشًا عند نزول أشد الكوارث وقعًا، وأعظمها إيلامًا موجعًا، وحلول أبأس المصائب هَيْضًا للنفوس؛ إذْ لا كارثة أشدُّ على نفوس المسلمين في الدنيا من موت نبيهم ﷺ وانقطاع الوحي بهذا الموت الذي فصم وشائج السماء بالأرض، ولا مصيبة أعظم بأسًا من مفارقته ﷺ لأمته مفارقة أبدية في الحياة الدنيا.

مصاب الصديق بموت رسول الله ﷺ أشد وأوجع:

وإذا كان مصاب جميع الخلق بموته ﷺ أشدَّ وأقسى مصابٍ

يلقاهم ويلقونه في دنياهم، فإن هذا المصاب بالنسبة لأبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه -أول صفيٍّ لرسول الله ﷺ سَبَقَ السابقين إلى الإيمان به وبرسالته ودعوته فآزره، وفداه بنفسه وماله، ولازمه في مواقفه ومشاهده، وكان معه ثاني اثنين في الغار، وطريق الهجرة المحفوفَيْن بأخطر المخاطر- أوجع ما يصيب حبيبًا في حبيبه، وآثر الخلق عنده، وأفدح ما ينال صديقًا في أصدق صديق كان له في الحياة.

ولكن شجاعة أبي بكر رضي الله عنه جعلته ينسى نفسه، ويُنَحِّي جانبًا حبه العاطفي لرسول الله ﷺ، ويتمسك بحبه رسولًا، أرسله الله لهداية الخلق وإخراجهم من الظلمات إلى النور، ويقف إلى جانب الدين الحق موقفًا أنقذ به الأمة من صدمة كادت تأتي عليها، فقد كان همه رضي الله عنه أن يبين للناس أن الدين لله وحده، وأن محمدًا ﷺ عبد الله ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح للأمة، وكشف عن الحياة غمّةَ الشرك والوثنية، وترك بين يديها كتابَ الله، فيه الهدى لمن أراد أن يهتدي، وفيه قوام حياة المجتمع المسلم وما ينبغي أن يكون عليه في سلوكه القيادي للإنسانية إلى آفاق الإخاء والعدل والمحبة والتعاون على البر والتقوى.

ثم أبان أبو بكر أنّ هذا الكتاب الكريم الذي هو الدستور الأصيل لحياة الأمة في مستقبلها هو نفسه الكتاب الذي أنزل الله فيه على محمد ﷺ أنه أحد رسل الله الذين أرسلهم برسالاته إلى أقوامهم وأممهم، يمضي إلى لقاء ربه مفارقًا للدنيا بما فيها ومن فيها إذا بلّغ رسالتَه وأتمَّ الله عليه نعمته بإكمال دينه، وأنه لم يُكتَب له

خلـودٌ في هذه الدنيا دونهم، وقـال له: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ﴾ (الأنبياء: ٣٤) فالله وحده هو المنفرد بالبقاء السرمدي الأبدي الذي لا يلحقه فناء، فهو وحده الحي الذي لا يموت.

وإنما أُرسل محمد ﷺ إلى الناس جميعًا ليعبدوا الله وحده حتى يكون الدينُ كله لله، ولم يُرسَلْ ليبقى مع أمته في هذه الدنيا، فإذا جاءه أجلُه وافـاه اليقين، وما عند الله خيرٌ له وأبقى، والآخرةُ خير له ﷺ من الأولى.

ومـن ثَمّ كان موقف أبي بكر رضي الله عنه في تذكيره الناس بما جاء به الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه -من أن محمدًا ﷺ بشـرٌ رسـولٌ، حتـى يفيقوا من أثـر المفاجأة والدهش- أعظم موقف في الإسلام.

والآية التي تلاها أبو بكر رضي الله عنه على الناس يوم كارثة وفاة النبي ﷺ إنمـا نزلتْ في غزوة أحـد، حينما ربط المؤمنون المجاهدون بقاء الدين والجهاد في سبيل الدفاع عنه ونشر رسالته لإعلاء كلمة الله ببقاء شخص النبي ﷺ بينهم مخلدًا لا يلحقه الموت.

هذا الحب المتزيـد بالعاطفة أول العوامل المؤثرة في هزيمة أُحُد:

هذا الربـط المتزيّد في الحب العاطفي -الـذي أدّى إلى هزيمة المجاهديـن في غزوة أحد، فنزلـت الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ عتابًـا للمؤمنيـن المجاهديـن علـى موقفهـم فـي هـذه الغـزوة الممحِّصـة- هو الذي كشـف الصدِّيـق عنه الغطـاء عندما نزلت بالمسـلمين داهيةُ الدواهي التي أذهلتهم وسـلبت مقدرتهم على وزن الأمـور إذا أعضلت؛ إذ لـم تحتمل عزائم إيمانهم تلقِّي الخبر

بوفاة النبي ﷺ.

لقد وقف الصدِّيق رضي الله عنه وحده في شجاعة فذّة، لا توزن معها شجاعة أحد من البشر بعد الرسول الله ﷺ؛ لأن الشجاعة الحقيقية ليست قتلًا وقتالًا، ولكنها كما رسمها الصديق رضي الله عنه قوة القلب وثباته عند المخاوف، وهذه الشجاعة هي التي يحتاج إليها قادةُ الأمم في حربهم وسلمهم؛ لأن شجاعة القلب تحمل على الثبات في مواطن الشدائد وشدائد الأزمات.

والصدِّيق رضي الله عنه رأى ما حلّ بالأمة عند وفاة رسولها ﷺ، وجحافل الفتن تكتنفها من جوانبها، فتغلَّب على حزنه الذي لا يلحقه في شدته حزن، ووقف يذود جحافل الدمار عن الإِسلام والمسلمين، وألهمه الله تشخيص الداء، فتكلّم وداوى وعالج دون جراح، وذكّر المائجين بما ردّهم إلى حظيرة الهدوء، فاستمعوا له، وأقرَّ عين العقيدة التوحيدية ونبّه إلى أصولها في أعراق أرض الهداية، وارتفاعها في سماء الإِخلاص والتعبد لله وحده.

يقول القرطبي: هذه الآية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصدِّيق وجرأته، فإِن الشجاعة والجرأة حدُّهما: ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبي ﷺ فظهرت عنده شجاعة الصدِّيق وعلمه.

قال الناس: لم يمتْ رسولُ الله ﷺ. ومن هؤلاء عمر. وخرس عثمان، واستخفى عليّ، واضطرب الأمرُ، فكشفه الصدِّيق بهذه الآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾.

مفاجأة الدهش عند وفاة النبي ﷺ أصابت عمر بما أذهله:

وفي حديث عائشة رضي الله عنها الطويل عند ابن ماجه أن أبا بكر صعد المنبر فقال: من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لم يمتْ، ومن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ثم تلا الآية، فقال عمر لمَّا سمعها: فلكأني لم أسمعها إلا يومئذ، ورجع عن مقالته التي قالها وهو دَهِشٌ مذهولٌ من هول المصيبة بموت النبي ﷺ.

ثم قال القرطبي: ذكر الوائلي أبو النصر عبيد الله في كتابه الإبانة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع عمر بن الخطاب حين بويع أبو بكر في مسجد رسول الله ﷺ، واستوى على المنبر تشهّد قبل أبي بكر، فقال: أما بعد، فإني قلت لكم بالأمس مقالةً، وإنها لم تكن كما قلت، وإني والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ولا في عهد عهده إليّ رسول الله ﷺ، ولكني كنتُ أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يَدْبرنا -أي حتى يكون آخرنا موتًا- فاختار الله لرسوله الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتابُ الذي هدى الله به رسوله، فخذوه تهتدوا لما هدى الله له رسوله ﷺ.

قال الوائلي أبو نصر: المقالة التي قالها ثم رجع عنها: إن النبي ﷺ لم يمت، ولن يموت حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم، وكان قال ذلك لعظيم ما ورد عليه، وخشي الفتنة، وظهور المنافقين، فلمّا شاهد قوة يقين الصدِّيق الأكبر أبي بكر رضي الله عنه، تلاوته للآية: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ تنبّه وثبت، وقال: كأني لم أسمعْ بالآية إلا من أبي بكر، وخرج الناس يتلونها في سكك المدينة كأنها لم تنزل قط إلا ذلك اليوم.

وكما كان في حب جمهور من شهد أحدًا من الصحابة تزّيد عاطفي، جعلهم يربطون بين بقاء النبي ﷺ بين أظهرهم حتى يدبرهم فيكون آخرهم موتًا، كما كان في رأي عمر ساعات دهْشِه وأخْذِه عن اتزانه بما فاجأه من الخبر المصعق، أو لعله كان من بينهم من يتوهَّم أن النبي ﷺ لا يلحقه الموت، وبين بقاء الدين والدعوة إليه والجهاد في سبيله لإعلاء كلمة الله، وتبليغ الرسالة إلى الخلق - كان في متابعتهم له ﷺ في جميع ما يأتي به عن الله تعالى تنقص عند بعضهم، وفي طليعة هذا البعض الرماة إلا من ثبت منهم مع أميرهم عبد الله بن جبير، واستشهدوا معه رضي الله عنهم.

وقد يلحق الذين خالفوا رسول الله ﷺ في رأيه أن يبقى داخل المدينة، ولا يخرج منها لقتال عدو خارجها رشح قليل أو كثير من هذا التنقص في المتابعة، ولا سيما أنه ﷺ قصّ عليهم رؤياه التي رآها في منامه عشية المعركة وتأويلها، ورؤياه ﷺ وحي كما يقضي به حديث عائشة عند البخاري في بدء الوحي.

وكان في رؤياه ﷺ أنه أدخل يده في درع حصينة قالوا: فما أوَّلت ذلك يا رسول الله، فذكر لهم البقاء بالمدينة، وأنها هي الدرع الحصينة، فلا يخرجون منها، فإن هاجمهم العدو قاتلوا في الطرقات والأزقة، ورماه النساء والصبيان من فوق أسطح البيوت، فخالفوه ﷺ، وعقدوا عزائمهم على الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة خشية أن يجبِّنهم العدو، وكانت عزائمهم على الخروج مما حمل ﷺ على موافقتهم، حذر الفُرقة وحزازات النفوس.

ولم يكن لرجوعهم عن عزائمهم حينما نصحهم بعض الأكابر، وقالوا لهم: استكرهتم رسول الله ﷺ على الخروج، بعد أن تهيأ رسول الله ﷺ للقتال خارج المدينة، ولبس أداة الحرب - وزنٌ؛

لأنّ رسـول الله ﷺ أبى عليهم ذلك خشـية أن تكون عزائمهم قد أصابهـا بعض التردد، وخشـية أن يرى العدوُّ هـذا الموقفَ فيظن بالمسلمين الخوف والضعف.

التلبث في المتابعة والتزيد في الحب العاطفي هما مفتاح اضطراب المسلمين في أُحُد:

كان هـذا التنقّص فـي المتابعة عند هؤلاء وهـؤلاء مفتاحًا لما أصاب المسـلمين مـن الهزيمة، ولمـا أصاب رسـولَ الله ﷺ من جراحـات داميات، لِتفرُّقِ من كان معه عنه وتركِهم له في غمرات المعركة وحيدًا، يضارب المشـركين بكل ما يستطيعه إلى أن فاء إليه بعضُ من عصمهم الله، وكان في طليعتهم الصدِّيق أبو بكر رضي الله عنه، فوقفوا بين يديه يتلقّون عنه الطعنات والضربات.

وكان هـذا التلبث في متابعه ﷺ سـبيلًا إلـى تمكين طواغيت الكفـر من قتـل أبطال المسـلمين والتمثيل بهم، حتـى بلغ قتلى المسـلمين بضعـةً وسـتين من الأنصـار وحدهم، وأربعـة نفر من المهاجرين، حمـزة بن عبد المطلب، ومصعـب بن عمير، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن شـاش(١٨)، وقـد مُثّل ببعضهم كحمزة وعبد الله بن جحش أشنع تمثيل، ممَّا زاد في غم النبي ﷺ وإيلامه إذ رأى مـا رأى من شـناعة الفجور والكفر فـي المبالغة في التمثيل حتـى عملتْ هند بنت عتبة قلائدَ من آذان وآناف الأبطال، وبقروا بطن حمزة رضي الله عنه وأخرجوا منه كبده.

---

(١٨) هكذا في الأصل، والذي في كتب السيرة (شماس بن عثمان)، ولعله خطأ طباعي.

وكل ذلك لم يكن ليكون لو أن المخالفين من المجاهدين أولًا وأخيرًا جعلوا عواطفهم وأهواءهم وآراءهم تبعًا لما يقول رسول الله ﷺ ؛ ولهذا عاتبهم الله عتابًا شديدًا في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ .

نزلت آية ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ ﴾ عتابًا للذين ظنوا خلوده ﷺ في هذه الدنيا:

وقد تضمن عتاب المؤمنين بهذه الآية -وهي التي تلاها أبو بكر يوم وفاة النبي ﷺ وسكّن بها الفتنة وأنقذ بتلاوتها المجتمع المسلم من شر مستطير، وبلاء ساحق- أمرين : التزيّد العاطفي في حب النبي ﷺ بربط بقاء الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيلها ببقاء شخص رسول الله ﷺ مخلدًا، لا يلحقه موت وانتقال من الدنيا إلى دار الخلود .

وهذا هو معنى ما ذكره أبو جعفر الطبري في قولة أبي بكر الصديق رضي الله عنه التي فسّر بها آية العتاب : إن الربط بين بقاء محمد ﷺ وبين بقاء الدعوة إلى الله والجهاد في سبيلها يتعدّى حقيقة بشرية محمد ﷺ ، فيخرجه في توهم الذين وقفوا موقف الهزة الإيمانية عن كونه بشرًا مثل سائر البشر، يلحقه ما يلحق البشر، ومنها الموت بعد استيفاء الأجل المكتوب له، كما لحق إخوانه المرسلين قبله كما قاله أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه ، وهو يسمع مقالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم تُوفِّي رسول الله ﷺ : فمن كان يعبد

محمــدًا فقد مات إلهه الذي كان يعبده -يعني أن اســتبعاد أو إنكار موت محمــد ﷺ تأليه لمحمد ﷺ ؛ لأن المتفــرد بالأبدية الذي لا يلحقــه فنــاء هو الإِلَه الحق الذي أرســل محمدًا ﷺ برســالة الهدى والنور.

ومثــل ذلــك مــا وقع فــي غزوة أحــد، فــإن بعــض المجاهدين المؤمنين لم يكدْ يسمع الصرخةَ الفاجرةَ التي أرجف بها الشيطان بين صفوف المســلمين بأن محمدًا قُتــل حتى اضطربتْ صفوفهم واســتولى عليهم الدَّهَشُ والفــزع، واختل نظامهم وذهب تثبُّتهم، ومرج أمرهم، فاختلط صفُّهم بصفوف المشركين، وجعل بعضُهم يضرب بعضًا وهم لا يشــعرون، ثم ولَّوا الأدبار منهزمين، وتفرّقوا حتى بلغ بعضهم في فراره المدينة، وبعضهم مكث ثلاثة أيام بعد انتهاء المعركة حتى فاء إلى إخوانه المسلمين.

وقــد وجد أنس بــن النضر رضي الله عنه، وهو مقبــل على النبي ﷺ للدفــاع عنه بالقتال دونــه، وتلقّي الضربات عنــه بعضًا من الذين اســتحوذ عليهم الدهش، وغلبتهم المفاجأة، وملكهم الاضطراب النفسي حتى هزّ إيمانَهم جلوسًا يكاد يقتلهم الغم، فقال لهم: ما جلوســكم هنا؟ قالوا: قُتل محمد ﷺ، فقال: هلُمَّ، قوموا فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمد.

فكانت هذه المحاورة القصيرة الســريعة إيقاظًا لمشــاعرهم، وتثبيتًا لقلوبهم، ففاءوا إلى رسول الله ﷺ، وقاتلوا دونه مدافعين عنه حتى انتهت المعركة.

كانت إصابات المسلمين في أنفسهم وفي جراحات النبي ﷺ أعظم درس تربوي للمجتمع المسلم في أُحُد:

وقد كانت لإصابات النبي ﷺ بالجراحات الكثيرة الدامية في وجهه الشريف، وإصابات من أصيب من المسلمين بالقتل أو الجراح والتمثيل البشع الشنيع ببعض من استشهد، ولا سيما سيد الشهداء حمزة عم رسول الله ﷺ - أبلغُ الأثر في نفس رسول الله ﷺ، وكانت تلك الإصابات وآثارها الوخيمة على المجتمع المسلم درسًا تربويًا، تلقّاه المجتمع المسلم ليتخذ منه معالم لمسيرته القيادية في مستقبل حياته، وكانت مظاهر لتمحيصه ليخلص من شوائب الجموح العاطفي في حبِّه ﷺ الذي ساقه إليه التزيد العاطفي في هذا الحب، وليكون هذا المجتمع على أرفع درجات المتابعة له ﷺ في كل ما يأمر به رسولًا وقائدًا، والمتابعة تقتضي التسليم المطلق في تنفيذ وصاياه دون حرج أو تأويل يبعد تلك الأوامر والوصايا عن أهدافها ومراميها.

وقد دلّت آية العتاب: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ على أن حبّ النبي ﷺ يجب أن لا يتعدّى بشريتَه ورسالته، فهو ﷺ بشرٌ رسولٌ أو رسولٌ من البشر، والبشر رسلًا أو غير رسل لا عاصم لهم من الموت، وقد كان قبله ﷺ رسل من البشر بلّغوا رسالات الله تعالى إلى خلقه، ثم ماتوا، ولم يُكتَب لأحد منهم الخلودُ في هذه الدنيا.

قال القرطبي: فأعلم الله تعالى في هذه الاية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبدًا، وأنه يجب التمسُّك بما أتت به الرسل وإنْ

فُقد الرســلُ بموت أو قتلٍ، فهذه الآية من تتمة عتاب المنهزمين، أي لــم يكن لهم الانهزامُ وإنْ قتــل محمد، والنبوة لا تَدْرأ الموت، والأديان لا تزول بموت الأنبياء.

وذِكْرهُ ﷺ في الآية باسـمه الأكرم إيذان بتأكيد بشريته، وهذا التأكيد يكسـب العتاب شـيئًا من الشّـدة الملائمـة، ووصفهُ ﷺ بوصف الرسـالة بأسلوب الحصر الإخباري مشعر بوجوب متابعته فـي كل ما يأمر بــه دون تأويل يبعده عن الامتثـال؛ لأنه بمقتضى وصف الرسـالة مبلِّغ عن الله تعالى ما أرسله به من شرعه وأحكامه التي يجب متابعته فيها مهما تكن الأسباب والنتائج؛ لأنه بإطلاق هــذا الوصف وعمومه مفيد أنه لا يأتي بشــيء من عنده، وإنما هو حامل لأمانة رسـالة الله تعالـى يبلّغها كما أوحاهـا إليه ربه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ (الأنعام: ٥٠)

متابعــة الرســول عنــوان علـــى محبــة الله ومحبـــة الرسول ﷺ:

فالــذي يحب دين الله وشــرعه، ويؤمن بالله إلهًــا واحدًا ليس له منصرف إلا متابعة مبلِّغ دينه الذي أرسله به، كما قال تعالى:

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ (النساء: ٦٥) وكما قال عز شأنه: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾. (آل عمران: ٣١)

فاتبــاع الرســول ﷺ هو العنــوان على محبــة الله تعالى ومحبة دينــه وبــذل النفس والمــال في ســبيل نصرة هذا الديــن للوصول

إلى رضاء الله تعالى، وليس على الرسول إلَّا بلاغ رسالة الله كما أنزلها الله عليه، فإعطاؤه فوق حقه بالتزيُّد العاطفي في حبِّه وربط بقاء الدين ببقائه، فإذا مات أو قُتل رجعتم عن متابعته، خروج منكم عن التبعية فيما وجب عليكم ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ بالتزيُّد العاطفي في حب الرسول ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لأن الله هو الغني الحميد، لم يَبعث رسلَه إلى خلقه لحاجةٍ إلى هؤلاء الرسل والمرسَل إليهم، وإنما بعثهم ليبلِّغوهم رسالات ربهم ليفردوه بالتعبد، ويستمسكوا بما آتاهم على رسله لإصلاح حياتهم، فمن اتبع هدى الله كان شكورًا لله تعالى مستحقًا جزاء الشاكرين الذين سيؤتيهم ثواب شكرهم في التزامهم بالحق، لا يتعدّونه إلى جامحات العواطف، ولا يخرجون في التزامهم عن طبيعة الرسالة في متابعتهم الرسلَ في كل ما يبلغونه عن الله تعالى.

ومتابعة الرسول أساس وجوب التأسِّي به في الصبر على المكاره، والعمل الدائب على نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ونصرة الحق ومقاومة الظلم، وهذا التأسِّي هو الجانب الأغر من جوانب منهج رسالة الإسلام؛ لأنه الدعامة الأولى في بناء مسيرة الدعوة لإعلاء كلمة الله ونشرها في آفاق الأرض.

الحب الإيماني بمتابعة الرسول هو وشيجة تماسك المجتمع المسلم:

وعدم ربط بقاء الدين واستمرار الجهاد في سبيله ببقاء شخص النبي ﷺ في هذه الدنيا لا يلحقه فناء بموت أو قتل، وإيجاب متابعة الرسول والتأسّي به علمًا وعملًا هما الوشيجة العظمى

لتماسك المجتمع المسلم ولا سيما الدعاة إلى الله من أتباعه، وهما المعيار السوي لتقدير الشخصيات مهما كان شأنها من الرفعة بعيدًا عن المبالغات المفسدة لموازين الحق والعدالة، لأن البشر بأعلم علمائهم وأتقى أتقيائهم لم يخرجوا عن كونهم بشرًا مخلوقين لله تعالى، والبشر في طبيعتهم الخطأ فهم خطاءون لم يعصم الله أحدًا منهم عن أن يكون بمعرض الخطأ والخطيئة، حاشا رسل الله وأنبياؤه، فهم الذين ينفردون بالعصمة عن الخطأ فيما يبلّغونه عن الله تعالى من شرائع وأحكام.

فالذي وقع في غزوة أحد إنما كان من قبيل الابتلاء الممحّص، ليعرف المجتمع المسلم وخيم عاقبة معصية الرسول ومخالفة أمره عمومًا، ويتأكد ذلك في المواطن الأصلية لبناء الدعوة إلى الله تعالى، وليعرف هذا المجتمع المسلم شؤم مخالفة الرسول في أوامره ووصاياه، وخاصّة إذا كان ذلك في ظل حياته وشهوده وقيادته العليا لكتائب المجاهدين من أصحابه الذين اصطفاهم الله لَبنات لبناء المجتمع المسلم الذي ربّاه ويربيه على منهج رسالته ليَكونوا حملة أمانتها إلى الناس في أكناف الأرض.

وهذه المخالفة هي التي وقعت من الرماة الذين أقامهم رسول الله ﷺ في أماكنهم من جبل عَيْنين وراء الجيش المسلم ليحموا ظهره، فلم يطيقوا الصبر على البقاء في أماكنهم كما أمرهم رسول الله ﷺ، وتركوها متأوّلين بمجرد ظهور بوادر النصر مع الجولة الأولى التي صدق فيها المجاهدون الحملة على المشركين فهزموهم.

وكانت أوامر رسول الله ﷺ لهم صريحة واضحة لا غموض

فيها ولا إبهام، فإنه أمرهم أن لا يبرحوا من أماكنهم مهما كان سير المعركة حتى يرسل إليهم، ووعدهم ووعد جميع المجاهدين معهم إن هم ثبتوا حيث أقامهم كان النصر حليف المسلمين.

قال الزرقاني: وإلى هذا أشار سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

ثم قال الزرقاني: أخرج الطبري عن السُّدّي وغيره أن المراد بالوعد قوله ﷺ أي للرماة: «إنكم ستظهرون عليهم فلا تبرحوا من مكانكم حتى آمركم».

بيان موطن العتاب في آية الوعد بالنصر:

وفي هذه الآية الكريمة ضَرْبٌ من العتاب الشديد المعلِّم، فالله جل شأنه يخبر فيها المؤمنين المجاهدين أنه تعالى صدقهم وعده بالنصر إذ صدقوه عهده بالإخلاص في جهاد عدوِّه وعدوِّهم، وأنه عز شأنه سلَّطهم على المشركين يحسونهم بسيوفهم حسًّا يستأصلهم بإذنه وأمره، ولكنهم لم يطيقوا مرارة الصبر على الجهاد، ففشلوا وداخلهم الرعب المشاب بشيء من الهلع عن الاستمرار في خوض المعركة حتى تصل إلى غايتها.

وقد زاد في ضعفهم عن الاستمرار في القتال تنازعهم في الأمر، فقال فريق من الرماة إذْ رأوا مخايل النصر تلوح في أفق المعركة:

مـا بقاؤنا ها هنا يعنون أماكنهم التي أقامهم فيها رسـول الله ﷺ، وأمرهـم أن لا يبرحـوا منها حتى يرسـل إليهم قـد نصرنا الله على أعدائنا وهزمهـم أمامنا؟ وتنادى الرماة: الغنيمـة، الغنيمة، فأبى عليهـم أميرهـم عبد الله بن جبير، وذكّرهـم بعهد النبي ﷺ أن لا يبرحوا من أماكنهم حتى يرسـل إليهم رسـولُ الله ﷺ، فأبوا طاعة أميرهم إلى جانب إبائهم طاعة أوامر رسـول الله ﷺ التي سـلّطوا عليهـا التأويل المباعـد بينها وبين صراحة نصـوص تلك الأوامر والوصايا.

ولـم يكتف النـص القرآنـي في الآيـة المعاتبة بذكر الفشـل، وهو رعب مشـوب برشـح من الجبن المذل، فهو عيب عيّرتهم به الآيـة في عتابها وهو عصيان ووهـن، والله تعالى يقول لهم: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ بـل عقّـب الله تعالى ذلك بذكر العصيان ليسـجل عليهم ما حملوه من وخيـم المخالفة، وما حملوه للمجاهدين من هزيمة وقتـل وتمثيل على أبشـع وأشـنع صـورة عرفها الفجـور في طغاة المشركين من عبيد الوثنية.

ولـو لم يكـن من ذلك إلا مـا أصاب النبي ﷺ مـن الجراحات الداميـات المؤلمات، وإلا ما أصابه ﷺ مـن غم وغيظ وهو ينظر إلى عمه سـيد الشـهداء حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد مُثّل بـه، فبُقِرَ بطنُه وأُخرجت كبده، لكان كافيًا في بيان حكمة توجيه هذا العتاب القاسـي إلى أولئـك المخالفين المتسـببين في نزول مـا نزل بالمؤمنين من بـلاء قَلَبَ عليهم ميـزان المعركة من نصر للمؤمنيـن رأوه بأعينهم إلى هزيمة هزّت كيانهم ومسـت بعنفها مداخل الإيمان في نفوسهم.

وقد ضمنت الآية الكريمة ذكر أسباب العتاب ببيان أن تلك الأسباب إنما كانت من المخالفين بعد أن أراهم الله رأي أعينهم ما يحبُّون من النصر على عدوهم، ولكن الآية الكريمة إمعانًا في تأديب العتاب ليكون درسًا مذكورًا في الحياة المسلمة عيرتهم بأن فريقًا منهم أسدلت عليه جلباب الستر فلم تسمِّهم أو تصفهم نزلت بهم رغائبُ الدنيا عن سمّو ما كان ينبغي أن يكونوا عليه من التجافي عن هذه الرغائب التي لا تتسامى بهم عن الإخلاد إلى الأرض.

كانت إرادة الدنيا من بعض الصحابة هي السبب فيما ابتلي به المجاهدون من محنة التمحيص:

ثم أبانت الآية الكريمة أن ما وقع من المعاتبين من تعلّقهم بزخارف الدنيا الفانية إنما هو ابتلاء من الله تعالى ليمحِّص الذين آمنوا ويمحق بهم الكافرين، ثم ختمت الآية متلطّفة بالمعاتبين بذكر منة الله تعالى عليهم بعفوه فضلًا منه وهو ذو الفضل العظيم.

ومن الحكم التي تضمَّنتها محنة الابتلاء والتمحيص في غزوة أحد أن سنة الله تعالى مع أنبيائه ورسله أن يبتليهم في الدنيا ويجعل لهم فيها العاقبة الحميدة، وخاصة في معارك الجهاد في سبيل الله، لأنهم لو انتصروا دائمًا في حروبهم مع أعدائهم لفتن الناس بهم، فتزيدا في حبهم وطاعتهم، وفي الاعتقاد فيهم بما يباعد بينهم وبين بشريتهم، وأنهم مخلوقون يجري عليهم ما يجري على سائر البشر من المحن والبلايا فيما لا يمسُّ حقيقة رسالاتهم وقداساتها، وهذا كما قال تعالى:

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

وقوله عز شأنه: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ (آل عمران: ١٧٩).

ولو انكسروا دائمًا لم يتحقق المقصود من بَعْثتهم لهداية الناس لأن الانكسار دائمًا يدعو إلى الشك فيهم وفي صدقهم، فاقتضت الحكمة الإلهية الجمع بين الانتصار لفتح طريق مسيرة الدعوة إلى الله، وإزالة العقبات التي تقف أمامها، وبين الابتلاء للتربية على احتمال مرارة الصبر والتفكير في مناشئ الابتلاء وعواقبه للتوقي منها، وليتأسّى بهم من يحمل عبء الدعوة بعدهم، فيتذرّع بالصبر على المكاره، وتحمُّل المحن وشدائد الأزمات التي تقابلهم في طريق نشر الهدى والخير، وليعلموا أن الوصول إلى رضاء الله لا تبلُغه أعمالُهم، فكان لا بد للدعاة إلى الله من حوافز تبعثهم على المزيد من الصبر والاحتمال ومقابلة السيئات بالحسنات، وهذا كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٢) قال ابن إسحق في تفسيرها: أي أَحَسِبْتُم أن تدخلوا الجنة فتصيبوا من ثوابي الكرامة، ولم أختبركم بالشدّة والابتلاء بالمكاره حتى أعلم صدق ذلك منكم في الإيمان بي والصبر على ما أصابكم فيّ.

وقوله الله جل شأنه: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ معناه: ولما تتّثبت نفوسكم من الرضا بقضائي وقدري والصبر على بلائي، حتى يتخلّى ذلك منكم وتظهر للناس آثاره ليقتدوا بكم، ولتكونوا معالم على طريق الهدى يسترشد بها أهل

البلاء من عبادي، فيعجز الشيطان أن يسدّ عليهم منافذ الركون إلى مناجاتي بطلب العفو من بلائي والرضا بقضائي.

هذه هي أصول الحكم الربانية التي أنعم الله بها على عبده وحبيبه محمد ﷺ، وعلى عباده المجاهدين معه في غزوة أحد التي كانت أعظم درس تربوي في تاريخ المجتمع المسلم، وهي جامعة لجوامع الفوائد التي لابد للمجتمع المسلم في مسيرته بالدعوة إلى الله من أن يمرّ بها.

لم تكن محنة أحد سخطة لله وإنما كانت لونا من التربية الإلهية للمجتمع المسلم:

وهذه الأحداث الدامية، والمحن القاسية، والبلايا المرزئة التي أصابت المجتمع المسلم في هذه الغزوة لم تكن قط من عقوبات المساخط الإلَهية، وإنما كانت دروسًا تربوية كان المجتمع المسلم في أشد الحاجة إليها وهو في دور النشأة والتكوين لتمحيصه تمحيصًا يصفّي عواطفه الإيمانية، ويصقل غرائزه البشرية، ويصونه عن الإفراط في الحب بالتزيد فيه وإعطاء ما ليس بحق صورة ما هم حق، ويحفظه عن التفريط في المتابعة بالتنقّص منها بتحريف التأويل.

نعم إن ما جرى في غزوة أحد من أحداث وابتلاء ومحن وأزمات كان لونًا من التربية الصادقة القاسية، وهي تربية اقتضاها الموقف بدءًا ونهاية ليتحقق الزجر الذي يحوّل النفوس عن رغائبها العاطفية إلى إرادات إيمانية، فهي في حقيقتها وعواقبها البعيدة رحمة، من شذاها استمد حكيم الشعراء قوله:

فَقَسا ليزدجروا ومن يَكُ حازمًا
فَلْيقْسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَمُ

والـذى يـدل على أنهـا أحـداث تربية رحيمـة غلّفتها الشـدة القاسية ما نزل في قصّتها من آيات الكتاب الحكيم.

فقـد تلطـف الله بمـن كان متنزل هـذه الأحـداث القواصم من المؤمنين المجاهدين، فلاحقهم بالعفو عنهم بعد أن أذاقهم مرارة العتاب لئلا تنفطر نفوسهم كمدًا وغمًا، فختم الله تعالى آية العتاب المتضمنة لوعد الله بالنصر إذا حقق الرماة ما أوصاهم به رسول الله ﷺ ونفّـذوا أمره بقوله عز شـأنه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

تلطـف اللـه تعالـى بالمجاهديـن فـي العتـاب ملاطفـة في التربية والتوجيه:

وهـذا التلطف من الله تعالى بهؤلاء المجاهدين الذين هفوا هذه الهفوة يجعل العتـاب منه تعالى من قبيل الملاطفة التي تحمل في طيّاتهـا التأنيس لهم بعد أن نأت بهم جفـوة المعاتبة، ليثوبوا إلى الامتنان الإلهي والإِحسـان الربّاني، ويقفـوا بين مرارة العتاب فلا ينسـوا مـا كان منهم ليعودوا إلى مثله، وبيـن حلاوة الملاطفة فلا يبتئسوا همًا وغمًا.

ويرشـح صيـرورة التلطـف ملاطفـة ختم الآيـة الكريمـة بما وصف الله عز شـأنه به نفسه من أنه أهل التفضل والإنعام لإبانة أنّ ملاطفتهم بعد العتاب نابعة من بحار كمال جوده الذي سبقت فيه رحمتـه غضبه، مع وصفه لهؤلاء المعاتبين بالإيمان الذي هو ذروة

الكمالات لتنزل المراحم والإنعام، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لا يتركهم لمرارة العتاب تُمرّ حياتهم، ولكنه تداركهم بحلاوة الملاطفة لِيَحْلوا لهم مذاق الإيمان.

وهذه الجملة، كالتعليل لجملة العفو قبلها، كأنه قيل: ولقد عفا عنكم متفضّلًا، لأنه ردكم إلى الاعتصام بوصائل الإيمان.

ثم عاد ربنا تبارك وتعالى بعائدة العفو مرة أخرى فختم بها آية التعبير بمعصية التولّي عند التقاء الجمعين في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

اختلاف أسلوب آيتي العتاب دليل على اختلاف الموقفين باختلاف أسبابهما:

واختلاف الآيتين: آية الوعد بالنصر المشروط باتباع أوامر القيادة العليا للمعركة وتنفيذ تلك الأوامر لصدورها من رسول الله ﷺ بوصفي النبوة والقيادة العليا، وآية التعيير بمعصية التولّي يوم التقاء الجمعين في أسلوب العتاب والعفو دليل على ما بين الموقفين في العتاب تبعًا لاختلافهما في الأسباب المقتضية لهما والنتائج المترتبة عليهما، ففي آية الوعد المشروط جاء الأسلوب خطابيًا موجّهًا، وفي آية التعيير بالتولّي جاء الأسلوب غيابيًا حاكيًا، لأن ما وقع فيما ذكرته آية الوعد بالنصر من الفشل والتنازع والعصيان كان سببًا فيما وقع من التولي الذي عوتبوا عليه في الآية الثانية.

ولا شك أن أثر السبب في النتيجة أقوى وأعمق من أثر النتيجة بعد انتهاء أسبابها، فلهذا جاء الأسلوب في آية الوعد مواجهًا بالخطاب الحضوري ليكون أثره في النفس أبلغ وأعمق وليقول لهم: فعلتم كذا، ووقع منكم كذا، فكانت النتيجة أنكم توليتم عن المعركة وأخليتم الموقف، فكانت هزيمتكم وجراحكم وسائر ما أصابكم من البلاء، وجاء الأسلوب في الآية الثانية غيابيًا حاكيًا ليذكّرهم بما وقع منهم ليحذروا أن يقع مثله في مستقبل مجتمعهم المسلم.

لون من التلطف الإلهي علق للنبي ﷺ ليجعله من معالم التأسي به:

ليس هذا فقط، ولكن الله الرحيم بعباده أنزل على عبده ورسوله وحبيبه ﷺ وهو الذي كانت إصاباته في نفسه، وفي عمّه سيد الشهداء، وفي خاصة أصحابه من القتل والجراحات والتمثيل أشد ما أصيب به المجاهدين خاصة والمسلمون عامة يخاطبه ممتنًا ومرشدًا وآمرًا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(آل عمران: ١٥٩، ١٦٠)، وهاتان الآيتان من أعظم آيات التربية القادة والزعماء والحكام وولاة الأمور ورؤساء الأمم والجماعات، ويدخل في ذلك الآباء والأمهات

وأســاتذة التربية والتعليم ومديرو المؤسســات والشــركات، لأن كل أولئـك مطلبون بالاقتداء والتأسّـي برسـول الله ﷺ في منهج رســالته التربوي، لأن الآية ترســم سياســة تدبير أمور حكم الأمم والشــعوب، وترسم سياســة تربية الأفراد والجماعات لاسيما في أوقات الشدائد والأزمات.

وقـد افْتُتِحَـتْ الآيتان بامتنان الله على نبيـه وحبيبه ﷺ بأن ما طُبـع عليه مـن اللين والرفـقِ والرحمة إنما هو من نعـم الله عليه، لأن مهمتــه فــي الحياة رســولًا مبلغًا عن الله رســالته ليخرج الناس من الظلمات المحيطـة بهم من كل جانب إلى نور الهداية والخير مهمة شــاقة عســيرة، تتطلب صبر أولي العــزم مجتمعًا، وتتطلب الســماحة والتســامح فيما لا يمس جوهر الرســالة، ثم كشف الله لرســوله ﷺ بأنــه لو كان علــى نقيض ما جبلــه الله عليه من لطف وليــن ورفق ورقــة رحيمة لما كان مســتطيعًا أن يجمــع حوله هذه الجموع لأن طباع البشر تغلب عليها النفرة والنشوز من كل ما هو مظهر من مظاهر الســيطرة المرتفعة، والســلطان الآمر الناهي في جفوة الترفع والتعالي.

تحليــل في بيان التلطف الذي اشــتمل عليــه قول الله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ ﴾.

فـإذا غلَـط بعضٍ أصحابـك في بعـض مواقفهم لتغلـب منازع البشرية عليهم فتلطَّفْ بهم لتعيدهم إلى ساحة رضاك عنهم ونمط تربيتك لهم ومنهج رسالتك لتُعْلِيهم، ولا تعاملهم معاملة تزيد من نفرتهم عنك لأن حياء الغلط نفرة خجول، يحتاج إلى من يمســح عنــه بيد لُطْفه نَــدَى هذا الخجل، فإذا جاءته جفــوة ناصحة فربما

دفعته إلى شموخ جموح فلا يسمع صاحبه إلا صوت نفسه الأنوق عن ملامة التقريع، فينفَضُّوا من حولك أنفة أو خجلًا أن تنظر إليهم بعين اللوم الصامت.

وهذا توقيف لسير دعوتك، وعقبة كئود أمام انتشار رسالتك، ولكن عاملهم معاملة المربي الحاذق الذي يكشف في تؤدة وأناة مشفقة عن مزالق الأخطاء، حتى يروا بعين بصيرتهم أن ما وقع منهم ما كان ينبغي أن يقع، ويداخلهم ندم شفيف لموقفك المتلطّف بهم، فيحذروا أن يقع منهم مثل ما وقع فأخجلهم، دون أن تثور أنفسهم أنفة لشخصياتهم.

وتجاوز بالعفو عنهم عما كان منهم في حقك وحقِّ أنفسهم وحق مجتمعهم، وعرِّفهم واجبهم نحو الدعوة إلى الله، لأن هذا العفو من أعظم معاقد الحب الذي يعيد قلوبهم المنكسرة بعد جبر كسرها بالعفو الرفيق الرحيم.

ثم زادهم الله تلطفًا عند نبيهم ﷺ بجذبهم إلى القرب منه قربًا يزيد في محبتهم له ومتابعتهم لأوامره، فقال له: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أي لا تتركهم تحت طائلة الشك والتردد في مغفرة الله لهم، لأن هذا يعيق نهوضهم معك في مسيرة رسالتك.

وقد يولد في أنفسهم بعض اليأس، وهو أخطر آفات الفناء الروحي، لكن استغفارك لهم يحيي فيهم روح النهوض، ويجدِّد في نفوسهم دوافع الإيمان والجهاد في سبيل الله، وفي سبيل عقيدتهم ودينهم، لأنهم يوقنون أن استغفارك لهم مقبول، فتطمئن قلوبهم فيزدادوا إيمانًا مع إيمانهم.

ثـم جـاءت في الآية واسـطة عقـد التلطـف الربانـي، فأمر الله تعالـى نبيّـه ﷺ أن يزيدهم قربًا إليه فيشـاركهم الرأي ويخلطهم بالمشاورة، ليشعرهم أنهم عادوا لما كانوا من القرب والمشاركة فـي تحمّل المسـئولية، فقـال له ربـه: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ لأن مشـاورتهم تفتـح قلوبهـم وتنيـر أفكارهـم، وتوقظ مشـاعرهم وإحساسـاتهم لتلقي ما يأمر به ويطلبه بأعظم القبول، والطواعية والحب ورغبة المسارعة في الامتثال.

مبدأ المشاورة أصل المبادئ الاجتماعية في الإسلام:

والمشـاورة أصـلُ كلِّ خيـر تناله الأمـة من قادتهـا، فهي مبدأ اجتماعي شـرعه الله في رسـالة الإسـلام ليكون منهجًـا للمجتمع المسـلم في مسـتقبل حياته، لأن الرأي المـردّد للنقاش والبحث أنظف وأصفى من رأي الفرد مهما يكن قد أوتي من رجاحة التفكير، ومن البداهة أن المشـاورة لا تكون إلا في الأمور الاجتهادية التي لا نصَّ فيها؛ لذلك مجالها الأمور النظامية الاجتماعية، وهي معزولة عـن العقيـدة عزلًا تامًـا، لا يجعل لها سـبيلًا إليهـا، وكذلك هي معزولـة عن العبادات إلاّ في طرائقها ووسـائل الوصول إلى أدائها مع ملاحظة الشرط العام، وهو عدم وجود النص.

ثـم جاءت العاقبة لـكل هذا البيان أن المشـاورة التي تأتي بعد صفاء الصدور لابدّ أن تنتهي إلى أمر قد أحكمته التجارب ولم يبق وراءه إلا عزيمة ماضية، يكنفها صدق التوكل على الله، مع السمع والطاعة والاتباع.

ثم قفّى ذلك كله بجامعة الجوامع، ليخلِّص النفوس من نزاعات الغـرور، فبينّ أن النصر بيد الله تعالى، يؤتيه من يشـاء متى شـاء، لا يقـدر عليه غيـره تبارك وتعالى، فلا يسـتطيع أحـد أن يرّده إذا نـزل، ولا يسـتطيع أحـد أن يجلبه إذا خذل الله مـن يريد خذلانه، فقال تعالـى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (آل عمـران: ١٦٠) وإذا كان النصـر بيـد الله، فمـن ينصره الله فلن يُغلب، لأنه ليـس هنا قوة في الحياة تسـتطيع أن تقف أمـام بطش الله وقهره، مهما كانت وسـائل قوة البشر ووسائلهم.

ومـن يخذله الله القوى القّهار فمن ذا الذي يسـتطيع أن ينصره مـع خذلان الله لـه، وهذا بيان لتقوية قلـوب المؤمنين حتى يكون إيمانهـم بـالله وعظمتـه واقتـداره وقهره هـو الدعامـة الأولى في جهادهـم لأعدائهم وأعـداء الله مـن الكافريـن والملحدين، وهم يوم أن كانوا مستمسـكين به كانوا قادة الإنسـانية ورعاتها، فلما طرحـوه وراء أظهرهم وفتنوا بمظاهر الحضـارات الكافرة أنزلهم الله من علياء مكانتهم وعبّدهم لهؤلاء المفتونين بالعلم الكفور.

وقد ختمت الآيتان بتوجيه تربوي أفسـده أعداء الإسـلام على المسـلمين فقلبوه من عمل دءوب في سـبيل العـزّة والكرامة إلى تـواكل وانغماس في رغائب الشـهوات، فقـال تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ والتـوكل علـى الله معنـاه صـدق الإيمان به وبأنـه مالك القوى والقدر، يعز من يشـاء ويذل من يشـاء، وليس معنى إطلاق المشيئة أن الله تعالى يعز الكُسَالى المتثائبين، ويذل

العاملين الناهضين، فذلك لم يكن من سنة الله في الخلق، وإنما معناه أن تبذل طاقتك في العمل، وتعد ما أمرك الله بإعداده من وسائل القوة والنهوض، ثم لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، وهنا تنطلق مشيئة الله بنصر العاملين ولو قلّت أعمالهم وإعداداتهم ويرد كيد أعدائه في نحورهم، والتاريخ أعظم شاهد على ذلك بما كان فيه من وقائع الجهاد والفتوحات الإسلامية التي تمت في ظل المنهج الذي كان هدف الرسالة.

ولقد كان هذا الاتجاه المنهجي في صدق التوكل على الله بعد القيام بما ينبغي من حق العمل التطبيقي والمشاورة واليقين بأن النصر بيد الله هو المنهج الذي سار عليه النبي ﷺ في تربية مجتمعه.

التربية الفردية في الإسلام هي الأساس لتربية المجتمع المسلم:

وقد كانت اللبنة الأولى في هذا المنهج هي التربية الفردية، لأن الأفراد في أي مجتمع هم عناصره الأولى التي يتألف منها، وهم مادته التي تتركب منها عناصره، فإذا أحسنت تربية الأفراد - في تصفية أرواحهم من كدورات العقائد الوثنية، لتغرس فيها يانعات الإيمان، وتصفية عقولهم من ظلمات الإدراكات الإلحادية، وتصفية تفكيرهم من أثقال موروثات التراث الجاهلي، وتصفية عواطفهم من جامحات الغرائز، وتصفية وجداناتهم من ذلّة الاستكانات والاستسلام للرغائب الشهوية، ليعوّدوا على تجرع مرارة الصبر في سبيل نصرة الحق، وإقامة معالم العدالة، وإراداتهم بالحزم الذي لا يعرف التردّد، وأشربت قلوبهم الرحمة

والرفق والإحسان في عزائم ماضية، وسقيت مشاعرهم بحب المعرفة التي تأخذ بهم إلى سرمدية النظر في الكون ليكشفوا عن أسراره، حتى يروا بعين بصيرتهم يد الله وهي تحرِّك كل ذرة من ذراته في سمتها المقدر لها - كان كل فرد منهم أمة في رسوخ إيمانه، واستقامة تفكيره، وإشراق روحه، واستنارة عقله، وقوة عزيمته واتجاهه إلى مقصده وغايته في الحياة الكريمة التي هي هدف منهج الرسالة الخالدة.

وتربية الأفراد بهذا الاتجاه المتكامل في عناصر تركيبه يجعل من المجتمع أمة سويّة التركيب، مستقيمة الطريق، مهذّبة السلوك، مهيّأة لكل خير، لاسيما في مطالب القيادات الإنسانية التي نيطت بالمجتمع المسلم.

ومن ثم تبدأ التربية الجماعية للمجتمع، ليكون مجتمعًا موحّد الوسائل والأهداف والأماني والآمال، والوسيلة العظمى إلى ذلك هي المؤاخاة الاجتماعية التكافلية الملزمة الملتزمة.

منهج النبي ﷺ في تربية مجتمعه المسلم:

وقد قام النبي ﷺ وهو يبني مجتمعه المسلم في المدينة المنّورة بهذا العمل العظيم بعد أن تكاملت لهذا المجتمع المؤاخاةُ الفردية في ظل الوحدة الإيمانية على أحسن وأفضل ما يكون الترابط بين وحدة الإيمان بين الأفراد - أولًا -؛ ثم الترابط بين جماعات المجتمع كله - ثانيًا؛ ليجعل من هذا المجتمع وحدة إنسانية مؤمنة بكل القيم الفاضلة التي ينبغي أن تبلغها أمة الإسلام في سيرها بدعوتها ورسالتها.

وكانت التجربة الأولى في (بدر) لهذا الاتجاه المنهجي في

تربية المجتمع المسلم آية الآيات إذ وصل فيها المجتمع إلى حصيلة التكوينات الاجتماعية، وهي مليئة الروح بقوة الإيمان، بصورة خارقة لمألوف الحياة ومعارفها، لأن المجتمع المسلم في (بدر) كان سليم التكوين، لا تبلغ أخطاؤه أن تكون انحرافًا عن المنهج الأصيل لرسالة هذا المجتمع، وإنما هي أخطاء الساعة التي تتغلب فيها الغرائز البشرية على بعض نوازع الإيمان في وقت قد تحجب فيه الأحداث هذه النوازع، ولكنه يصحو فيسرع إلى الأوبة متطلبًا طبيعته الإيمانية.

أما الذين لم يستمكنوا من غرز الإيمان، ولم يدركوا مدرسة التربية الأولى قبل أن تنتقل إلى متسع الجهاد والعمل من شباب الأحداث الذين لم تسعفهم أعمارهم لتلقى التربية السلوكية عن طريق القدوة والتأسي بالنبي ﷺ في تطبيق نصوص القرآن وهو ينزل على النبي ﷺ يانعًا، ويتلقاه رواد المدرسة الأولى غضًا طريًا في حقائقه ومعانيه، وفي تطبيق البيان النبوي النابع من عين الحياة القرآنية - فهؤلاء الذين هم أرادوا في غزوة أحد أن يدركوا ما فاتهم من فضل مشهد (بدر) إذ فاتتهم (بدر)، فحرصوا على حماسة العواطف الإيمانية، ولم يكن حرصهم على المتابعة الإيمانية يساوق حرصهم على عواطف الحب المتزايّد، واختلفت بهم المسالك في غزوة (أحد) بدءًا ونهاية، وكان ما أراده الله مما فصلناه تفصيلًا أتى على مواضع العبرة في جوانب المنهج.

ثم كان ما كان من تلطّف الله تعالى بهم بالعفو وتوجيه النبي ﷺ إلى الرفق بهم، ومسح جراحات قلوبهم بقطرات غيث العفو عنهم، والاستغفار لهم، ومشاورتهم، ولفت نظرهم إلى ما ينبغي

أن يكونوا عليه في مستقبل حياتهم وحياة من يأتي بعدهم من صدق التوكل على الله، وقوة العزائم، ومعرفتهم بأن النصر بيد الله العزيز الحكيم.

النبي ﷺ يدعو
أصحابه إلى أرفع منازل العبودية

وقد أراد النبي ﷺ أن يجعل من محنة (أحد) على شدَّتها وقسوة أحداثها ووقائعها بعد أن بلغت نهايتها - مرتعًا لسارحات الأرواح في مراعي العبودية لتنطلق في مجالات شهود اللطف الإلهي ليغسل عن صدور أصحابه صدأ أحزانهم، ويعيد إليهم يقين الهدوء ويعيدهم إلى يقين هدوء الإيمان، ليستقبلوا حياتهم الجديدة بأرواح قوية مشرقة ترتفع فوق الأحداث والوقائع.

خطبة لرسول الله ﷺ لانتشال المسلمين مما أصابهم من الحزن والغم:

أخرج الإمام أحمد في مسنده، قال: حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، حدثنا عبد الواحد بن أيمن المكي، عن ابن رفاعة الزرقي، عن أبيه قال: لما كان يوم أحد وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «استووا حتى أثني على ربي عز وجل» فصاروا خلفه صفوفًا فقال: «اللهم لك الحمد كلُّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلَّ لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرِّب لما باعدت، ولا مبعِّد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم

يــوم العيلــة، والأمن يوم الخــوف، اللهم إني عائذ بك من شــر ما أعطيتنا، وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا وكــره إلينا الكفر والفســوق والعصيــان واجعلنا من الراشــدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايــا ولا مفتونين ...» قال ابن كثير في البداية: ورواه النســائي في اليوم والليلة.

من لواحق غزوة أحد

المسير إلى حمراء الأسد

لما انتهت معركة أحد بما انتهت به وانصرف المشركون نادى أبو ســفيان قائدهم بقوله ليُسمع المســلمين: إن موعدكم (بدر) العام القابل، فقال رســول الله ﷺ لرجــل من أصحابه: «قل: نعم، هو بيننا وبينك موعد» ثم بعث رســول الله ﷺ عليّ بن أبى طالب رضي الله عنه، وقــال له: «اخرج في آثار القــوم، وانظر ما يصنعون، وما يريــدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيــل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، فوالذي نفســي بيده إن أرادوها لأســيرنّ إليهم فيهــا، ولأُناجزنّهُم» فخرج عليّ رضي الله عنه في أثرهم، فرآهم جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل ووجهوا إلى مكة.

مواقف من الشجاعة للتأسي والتربية:

وهــذا موقف من المواقــف التي لا يحصيها العــدّ من المواقف التي تمثِّل شــجاعة النبي ﷺ وثبات قلبه ومضاء عزيمته ورساخة قدمه في غرز الجهاد لنشر دعوته وتبليغ رسالته، على رغم ما نزل

به ﷺ وبأصحابه من شدائد البلاء وقاسيات المحن، لأن الشجاعة الحقّة هي في ثبات القلب وقوته عند النوازل والمخاوف وفادحات الكوارث دون أن يكون لآلام الجراحات أثر يمنع عن ملاحقة ومواجهة الأعداء في ميادين الجهاد، وإن كانت الجراحات لا تزال تبض بالدماء، وتسري موجعاتها إلى سائر الأعضاء.

ولما جاء عليّ رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ بنبأ مسير القوم إلى مكة لم يهدأ بال رسول الله ﷺ وجمهور من شهد (أحدًا) معه من أصحابه، بل بات ﷺ يقظان، لم يرنق جفنيه النوم، وهو يفكر في اللحاق بالقوم في مسيرهم إلى مكة ليرهبهم ويريهم أن ما نالوه من المسلمين لم يكن ليوهن قوتهم ويضعف شوكتهم بل إنهم لايزالون في سواء قوتهم وذروة تحرِّقهم على لقاء أعدائهم وجرأتهم واستعدادهم، وأقصى غايات الرسوخ في إيمانهم بدينهم وعقيدتهم وحبهم لرسول الله ﷺ، واقتدارهم على مواجهة عدوِّهم رغم ما ألم بهم من فادح البلاء وبالغ الجراحات.

وبات أصحابه ﷺ على بابه يحرسونه، خشية غدرة كافرة، حتى إذا أصبح من اليوم الثاني ليوم المعركة وانتهائها، وهو يوم السبت للنصف من شوال، وصلّى بأصحابه صبح يوم الأحد، أمر بلالًا أن يؤذن في الناس: إن رسول الله ﷺ يأمركم بطلب عدوِّكم، ولا يخرج معه إلا من شهد القتال بالأمس، وكان لواؤه ﷺ لايزال معقودًا لم يحلّ، فدعا به وسلّمه لعليّ رضي الله عنه، وقيل لأبي بكر الصديق رضي الله عنه.

مخرج رسـول اللـه ﷺ لمتابعة أعدائه مع ما به من شـدائد الآلام:

قال ابن سـعد في طبقاته : وخـرج ﷺ وهو مجروح في وجهه ، مشـجوج فـي جبهته ، ورباعيته قد شـظيت ، وشـفته السـفلى قد كُلِمَت في باطنها ، وهو متوهن منكبه الأيمن من ضربة ابن قمئة – لعنه الله – وركبتاه مجحوشتان .

وحشـد أهل العوالي إذ جاءهم الصريخ ، وركب رسول الله ﷺ فرسـه ، والناس من حوله يسـيرون بسـيره ، وبعث ثلاثة نفر– من أسـلم– طليعةً في أثر القوم فلحقهم منهم اثنان (بحمراء الأسـد) وهي من المدينة على عشـرة أميال في طريق العقيق متياسرة عند ذي الحُليفة ، فسـمعا للقوم زجلًا وأصواتًـا صاخبة ، وهم في هرج ومرج ، يأتمرون بالرجوع إلى المسـلمين ليستأصلوهم ، وصفوان بـن أمية ينهاهم عـن الرجوع إليهم ، فبصر المشـركون بالرجلين ربيئتـي رسـول الله ﷺ فعطفـوا عليهمـا فقتلوهمـا ، ومضوا في طريقهم إلى مكة ، يسوقهم الجبن بسياط الفزع والرعب ، ومضى رسـول الله ﷺ بأصحابـه فـي طريقـه لملاحقتهم ، حتى عسـكر بحمراء الأسـد ، فلقـي الرجلين مقتولين فدفنهمـا في قبر واحد ، وهما المعروفان بالقرينين .

وكان المسـلمون يوقدون في الليالي التي أقامها بهم رسول الله ﷺ في حمراء الأسـد – وهي خمس ليال – نـارًا ليزيد في إرهاب أعدائـه وإخافتهم ، وكانت هذه النيـران لعظمها وكثرتها ترى من المكان البعيد ، وذهب صوت معسكر المسلمين ومظهر نيرانهم فـي كل وجـه ، فكبت الله عدوهـم ، وملأ قلوبهـم بالرعب منهم ،

وانصرفوا يغذون السير إلى مكة خائفين مدحورين، يظنون أن محمدًا ﷺ لا يزال هو وأصحابه أقوياء تُخشى شوكتهم، وأنه لابد أن يكون قد جمع جموعًا كثيرة لمناجزتهم والانقضاض عليهم، وأن ما كان من نيل فيهم في أحد إنما كان شواشي جولة، لم يدخل إلى صميم قوتهم.

على هذا النمط كانت الفكرة في المسير إلى حمراء الأسد، وفي هذا المسير نزل قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٢).

مشهد من مشاهد الصبر والفداء وحب الجهاد في سبيل الله:

وأخرج ابن إسحاق من حديث السائب مولى عائشة بنت عثمان، أن رجلًا من بني عبد الأشهل، قال: شهدت (أحدًا) أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالخروج في طلب العدو، قلت لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ؟ والله ما لنا من دابة نركبها، وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله ﷺ، وكنت أيسر جرحًا من أخي، فكان إذا غلب حملته عَقَبة، ومشى عقبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

ومن حديث معبد بن أبي معبد الخزاعي أخرج ابن إسحق من طريق عبد الله بن أبي بكر بن حزم - وكانت خزاعة مسلمهم وكافرهم عيبة رسول الله ﷺ بتهامة، صفقتهم معه، لا يخفون عليه شيئًا كان بها - ومعبد يومئذ مشرك مر على رسول الله ﷺ

وهو مقيم بحمراء الأسـد، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزّ علينا ما أصابك في أصحابك ولوددنا أن الله عافاك فيهم.

ثم خرج معبد من عند رسـول الله ﷺ بحمراء الأسـد حتى لقي أبا سـفيان بن حرب ومن معـه بالروحاء وقد أجمعـوا الرجعة إلى رسـول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: لقد أصبنا حدّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم ثم نرجع عنهم قبل أن نستأصلهم، لنكرن على بقيتهم فلنفرغن منهم.

معبد الخزاعي في موقف من مواقف الوفاء الكريم:

فلمـا رأى أبو سـفيان معبد الخزاعي قال له: مـا وراءك يا معبد..؟ قـال: محمد قد خـرجِ في أصحابـه يطلبكم في جمع لـم أر مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط.

فقال له أبو سـفيان وقد فزع من قولـه: ويلك، ما تقول؟ فقال معبـد والله مـا أراك ترتحـل حتـى ترى نواصـي الخيـل، فقال أبو سـفيان: فوالله لقد أجمعنا الكرّة عليهم لنسـتأصل شأفتهم، قال معبـد: فإني أنهاك عن ذلك، والله لقد حملني ما رأيت أن قلت فيه أبياتًا من الشعر، قال أبو سفيان: وما قلت؟ قال معبد: قلت:

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجُرْد الأبابيل
تـردي بأسـد كـرام لا تنابلـة
عنـد اللقـاء ولا ميـل معازيـل
فظلْتُ عـدوًا أظـن الأرض مائلة
لما سـموا برئيـس غير مخذول

فقلت : ويل ابن حرب من لقائكم
إذا تغطمطـت البطحـاء بالخيل
إنـي نذيـر لأهل البسـل ضاحية
لـكل ذي إربـة منهـم ومعقـول
من جيش أحمد لا تُخشى قنابله
وليس يوصـف ما أنذرت بالقيل

وفي هذه الأبيات نَفَس من قصيدة بانت سعاد لكعب بن زهير ، جرت على وزنها ورويها ، واشتملت على ألفاظ من ألفاظها .

وقد فتّ كلام معبد الخزاعي ومحاورته أبي سـفيان في عضده ، وثناه ومن معه عن قصده ، وزعزع عزيمتهم وردهم عن همهم الذي كانوا قد هموا به ، وانصرفوا مرهوبين خائفين .

أخدوعة فاشلة في أكذوبة متهالكة:

ثم لجأ أبو سـفيان إلى أكذوبة ظنها أخدوعة ، فقد رأى وفدًا من عبد القيس يمرون بهم ، فاسـتوقفهم متسائلًا أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة ، قال أبو سفيان : ولمه ؟ قال القيسيون : نريد الميرة ، فقال أبو سفيان : فهل أنتم مبلغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليـه ، وأحمل لكم إبلكم هذه زبيبًا بعـكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم ، قال أبو سفيان : فإذا وافيتموه فأخبروه بأنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم .

فمر ركب عبد القيس بالنبي ﷺ وهو معسكر بحمراء الأسد ، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فقال النبي ﷺ : «حسبنا الله ونعم الوكيل» .

وفي كون حامل رسـالة أبي سفيان المتكذبة إلى رسول الله ﷺ وفـد عبد القيس خلاف ، وهو رأي السـدي ، والمشـهور عند أهل

السير والمغازي أن الذي حمل هذه الرسالة من أبي سفيان وأبلغها رسول الله ﷺ هو نُعيم بن مسعود الأشجعي، وهذا رأي مجاهد ومقاتل وعكرمة والكلبي، وقيل: إنه أعرابي مجهول لم يُسَمّ، جعل له أبو سفيان جُعْلًا، وكيفما يكن فهي أكذوبة فاشلة.

قصة حمراء الأسد تمثل لونا من الشجاعة ورسوخ الإيمان:

هذه الروايات والأحاديث والوقائع التي وردت في قصة المسير إلى حمراء الأسد في عقبة أحد مباشرة تمثل في إطارها الذي ذكرناه وصورتها التي رسمناها من واقع ما كان لونًا من الشجاعة التي انطوت عليها عزيمة رسول الله ﷺ وعزائم أصحابه - وهم يقاسون آلام جراحاتهم - لم يعرفه التاريخ لغيرهم قط.

فملاحقة العدو وهو منصرف من المعركة، مزهو بانتصاره فيها، يوحي إليه من التصورات والظنون التي لابد أن يكون منها في نظر هذا العدو أن جيش المسلمين لايزال سليمًا في قوته، أو أنه قد جاءه مدد مادي من الرجال والأسلحة، فتكون تلك التصورات والظنون مدخلًا للرعب إلى قلوب أولئك الأعداء، لاسيما أن هذه الملاحقة كانت من الذين أصابتهم القروح والجراحات، وهم لا يزالون يكمدون جراحاتهم ويعالجون قروحهم، ويكتمون آلامهم.

وقد حظر رسول الله ﷺ على كل من لم يشهد (أحدًا) أن يخرج مع الذاهبين لملاحقة العدو وإرهابه وإشعاره بقوة جيش المسلمين الذي كان إلى الأمس يواجههم في ميدان المعركة، وأن ما نالوه منه من الجراحات لم يبلغ أن يكون انتصارًا يقعد هذا الجيش المسلم عن ملاحقتهم للالتحام بهم كرة أخرى، قبل أن يتركوهم منصرفين بما يعتقدونه نصرًا لهم، لأنه لابد أن يكون

مـن بين تلـك الوجوه التـي واجهتهم في ميـدان المعركة بالأمس وجوهًا تلاحقهم كرة أخرى.

وذلك مما يفتُّ في أعضادهم ويزعزع عزائمهم، ويوحي إليهم أنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا مما توهمونه نصرًا لهم، لأن قوة محمد ﷺ وأصحابه مازالت سـليمة تستطيع أن تقف في وجههم محاربة منتصرة كما انتصرت في (بدر).

وقـد مهد رسـول الله ﷺ لذلك بإرسـال علـيّ رضي الله عنه ليعرف وجهة المشـركين في سـيرهم، وأقسـم ﷺ ليناجزنهم إن سـاروا إلـى المدينة، ولـم ير رسـول الله ﷺ أن يقعد عـن ملاحقة أعدائه ليسـتريح من آلام جراحاتـه ويريح أصحابه ليـداووا قروحهم، بل أمر ﷺ بملاحقة القوم وهم منصرفون إلى مكة، وأرسـل بين يديه الرسـل ليعرفوا لـه أخبار القـوم، ومضى في أثرهـم ومعه أصحابه فـي جراحاتهـم وآلامهم التـي تمثلهـا أروع تمثيل قصـة الأخوين الأشهليين.

الشدائد اختبار لصدق الوفاء:

والشـدائد دائمًـا هـي مظاهر صـدق الوفاء الـذي لا يقف عند وحـدة العقيـدة، بل الوفاء الـذي يتجاوز ذلك إلـى وفاء الإخلاص ومودة العهد والمحافظة عليها، ولو لم تكن معها وحدة الدين.

وقصة معبد الخزاعـي تمثل أكمل تمثيل هذا اللون من الوفاء، فمعبد بمجرد أنه خزاعي يعرف ما بين رسـول الله ﷺ وبين قومه من عهود مودّة، وأنهم عَيْبة رسول الله ﷺ وذوو صفقته، وأنهم لا يكتمونه شـيئًا يبلغهم عن أعدائه، وقد زاد الإسلام عهد رسول الله مع خزاعة قوة وثباتًا، تصرَّف إذ رأى رسول الله ﷺ بحمراء الأسد

هذا التصرف النبيل في وفائه وصدق إخلاصه، فبدأ بمواساة النبي ﷺ فيما أصاب أصحابه في (أحد) مواساة مودة ووفاء وإخلاص بكلمات معدودات، ولكنها تنطوي على كثير من معاني النبل والوفاء والإخلاص الحميم.

ولم يكتف معبد بهذه المواساة الوفية الصادقة، بل عمد إلى عمل إيجابي يدفع به عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه غائلة الكرّة عليهم من هؤلاء الفجرة من المشركين، ويناصرهم بكل ما يستطيع من قول وعمل.

وكان معبد قد رأى المشركين بزعامة قائدهم أبي سفيان بن حرب قد أجمعوا الرجعة إلى محمد ﷺ وأصحابه ليفرغوا من القضاء على بقيتهم، فقام معبد مقامًا اشتدت فيه وطأته على المشركين وقائدهم فأرعبهم وأفزع قلوبهم، وأرهبهم بما صوره لهم من تأهب محمد ﷺ وأصحابه للكرة عليهم بما لم يكن يدخل في خيالهم، حتى ثناهم عن الرجعة إلى المجتمع المسلم في عُقْر داره، ولم يجد أبو سفيان حيلة يغطي بها ما أصابه من الفزع إلا أن يتشبث بركب يمر عليه من عبد القيس وهم يتيَمَّمُون المدينة للميرة، فعاقدهم على أن يبلغوا محمدًا ﷺ أكذوبة من نسيج دهائه الذي لم يسعفه في هذا الموقف المتأزم في رسالة يبلغها رسول الله ﷺ ليصده عن ملاحقتهم.

ومرّ وفد عبد القيس برسول الله ﷺ وأصحابه وهم معسكرون بحمراء الأسد، فألقوا إليه ﷺ أكذوبة أبي سفيان التي استأجرهم بحملان الزبيب من عكاظ لتبليغها، فلم يزد رسول الله ﷺ حين سمعها على قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

رسوخ الإيمان وقوة الثقة بالله لا يوازيهما شيء:

وهذه الكلمة الموجزة جدًا في لفظها لا توزن بثقلها في الإيمان والثقة بالله تعالى رواسي الجبال وشامخات الأطواد، وقد جعلها الله فاصلة ختم بها ما أنزله على رسوله ﷺ مما يمثل الموقف كله في حقائقه ومعانيه، وأحداثه ووقائعه، قال عز شأنه: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ (آل عمران: ١٧٣، ١٧٤).

مِنْ بَدَر وَأُحُد إلى الحدُيَبيَة

كانت غزوة بدر نموذجًا للسلوك للمجتمع المسلم

أقمنا حديث الغزوات والبعوث والسرايا التي وقعت في حياة الرسول الله ﷺ مما قاده ﷺ بنفسه الشريفة أو عقد ألويته وراياته لبعض أصحابه من أبطال الجهاد لإعلاء كلمة الله أن تسري مع النسيم إلى آفاق العقول وشغاف القلوب، وأن تسابق ضوء الشمس إلى أرجاء الحياة لتنبه الغافلين، وتوقظ الرقود، وتحرر الإنسان من رق الوثنية البليدة الجهول، على أساس استبانة ما حوته تلك الغزوات بين حناياها من الجوانب المنهجية لرسالة الخلود، ولاسيما ما يتصل من هذه الجوانب بسياسة الإعداد للجهاد القتالي، وتبين الأسس التي أقامت على دعائمها هذا النوع من

الجهاد رسالة الإسلام الخالدة لتكون تلك الجوانب المنهجية حية في مسـيرة الدعوة إلى الله، لتحقيق عقيدة التوحيد الخالص الذي يفـرد الله تعالى بالتعبّد الخالص له وحده، وليتخذ المجاهدين من أبطال كتائب الإسـلام تلك المعالم نبراسًـا يهتدون بإشراق نوره في نشر رسالة الحق والخير والهدى والنور التي أنزلت على خاتم النبيين محمد ﷺ، حتى تقام موازين العدل الاجتماعي في معترك الحياة، فيأخذ كل ذي حق حقه، ويؤدي كل قادر واجبه، ويسـود الإخـاء الإيمانـي بين النـاس، وتتهاوى صـروح الشـرك الظلوم، وتتهدم أوكار الوثنية والإلحـاد والنفاق والتزندق وتحريف كلمة الحق عن مواضعها.

الجهـاد في منهج رسـالة الإسـلام دعوة إلى اللـه ودفاع عن الحق:

وقـد أوضحنـا فيما عرضنا لـه من مقدّمـات الحديث عن تلك الغـزوات والبعوث أنها كانت خرجات تسـتهدف الدعوة إلى الله لإعلاء كلمتـه، ولم يكن قط في مقاصدها إكراه أحد على الإيمان برسالة الإسلام ذلك الدين القّيم الذي فطر الله الناس عليه فحّرفته البيئات الاجتماعية عن مساره، فهي لم تكن أبدًا غزوات هجومية علـى قوم غافليـن، لم يُدْعـوا إلى الهـدى دعاء بيّنـا يقيم الحجة عليهـم، ويريهم من آيات الله فـي الكون ما يوقظهم من غفلاتهم، مـع إعطائهم الفرصة الممكنة لهم مـن النظر فيما بين أيديهم من الدلائـل والبراهين، ليعلمـوا حقيقة هذا الديـن القيم في عقيدته التوحيديـة التي هي الركيزة الأولى لبناء رسـالة الإسـلام، وركنها الأقـوم في بناء ما جاءت به من تعبدات وشـرائع ونظم اجتماعية،

وآداب سلوكية تعتمد على أرفع مكارم الأخلاق التي ينبغي أن تساس بها الحياة بمن فيها وما فيها، بأسلوب يعطي كل عقل إنساني ما تبلغه طاقته من النظر والتطبيق العملي مع نفسه ومع مجتمعه الخاص في بيئته، ومجتمعه الأساسي في بيئته العامة المنتشرة في أكناف الحياة.

غزوة بدر نموذج عملي لنهج رسالة الإسلام في الجهاد القتالي:

وقد كانت غزوة بدر العظمى هي المجال الأول الذي أتاح فيه التقدير الإلهي بالصورة التي بدأت بها هذه الغزوة المباركة والتي لم يقصد النبي ﷺ والمسلمون إلى القتال في خرجاتها حتى أُلجئوا إليه إلجاء تطبيقًا لنظريات منهج الرسالة تطبيقًا عمليًا، أخرج إلى الناس في إطار الأحداث والوقائع المشهودة في واقع الحياة مثلًا إيجابية مدركة بالعقول والبصائر، ومنظورة بالأبصار.

وقد أطلنا النفس فيما كتبناه من حديث هذه الغزوة التي كانت اللبنة الأولى في بناء صرح الجهاد للدعوة إلى الله في مباديها ومقدماتها، وأسبابها ودوافعها، وعواملها التي أحاطت إعدادًا وسياسة قيادية، ومشاورات لتهيئة النفوس لخوض معركتها، وما جرى فيها من أحداث ووقائع انتهت إلى غايتها من النصر المؤزر للمجتمع المسلم وكتائب جهاده، مع التفاوت في حجم القوة المادية لدى العدو ولدى المجاهدين من أبطال الإسلام.

ذلك النصر الذي دوّى صداه في أرجاء الجزيرة العربية شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، حتى رجت له القلوب رجّا كاد يخلعها

مـن بيـن أضالعها رهبة ورعبًا، وقد طوف صـدى هذا النصر حتى دخل كل خبـاء في مضـارب القبائل العربية وبطونهـا ومنازلها، وتنادت به محافلهـم ومجتمعاتهـم في مواسـمها وأسـواقها، حتـى أصبح الذين يقطنـون هذا الركن مـن أرض الله في الحياة بين مؤمـن مطمئن القلب بإيمانه، ومفزّع مرعوب مرتجف فؤاده حيران لا يدري من أمر نفسه في حاضره ومستقبله شـيئًا، ومتربص تؤرجحه تخيلات النوازل والمحن ويكبته الدهش، ويستولي عليه الذهول، فإذا هو ساهم مأخوذ.

وخلت مكة من طواغيت ملئها وشياطين طغاتها، ولم يبق فيها إلا مكظـوم بالهزيمـة متهالك يناغي الموت، يتهـاوى كأنه طائر منتوف الخوافي والقوادم، يسـتصرخون المرتزقة من الأحابيش، ويسـتنجدون بالمفزعيـن مـن دقـل القبائـل المنثورة بيـن رمال الصحراء هنا وهناك.

وقـد أفزع غـدرة اليهود نصر المجتمع المسـلم في بدر، وأدار رؤوسـهم علـى مناكبهم بزعامـة فجارهم من أضـراب الملعنين: كعب بن الأشرف، وحُيي ابن الأخطب وابن أبي الحُقَيق، فأقامهم وأقعدهم وأبكاهم وأضحك منهم، فكانوا سـخرية الساخرين بعد أن كانوا سـادة تجأر إليهم قريش، ويحتمي بحماهم المتزعمون، فهموا بما لم ينالوا، وذهبوا إلى من بقي من غثاء الشـرك، وغلت الوثنيـة في مكة يَعِدُونَهم وما يعدونهـم إلا غرورًا، ويمنونهم وما يمنونهم إلا سرابًا خادعًا، يحرضونهم على قتال المجتمع المسلم الذي أشجاهم وأذاقهم ذل الهوان، إذ نكل بحشودهم في بدر وقتل أشرافهم وصناديدهم، وتركهم كذيل الوحرة إذا قطع رأسها رأيته

يرقص للموت ليوهم الحياة.

كانَت مِحنَة أُحُد دَرسًا تَربويًا في حياة المجتمع المسلم

ثم جاءت وقعة (أحد) فكانت درسًا تربويًا ألقته العناية الإلهية على المجتمع المسلم بكل ما فيه من شدائد ومرائر، وأحداث قواصم منكيات، وكوارث عاصفة موجعات، أصابت من المسلمين حوازم أعصابهم ومداخل أفئدتهم، حتى كان منهم ما لم يكن من شيمتهم ولا هو معروف في خلائقهم، ولا أنست به سجاياهم، ولا لهم به عهد، إذ ولوا الأدبار فرارًا عن رسول الله ﷺ، وتركوه في معمعة المعركة، وقد استعر أوارها وحيدًا إلا من فئة قليلة لا تغني عن نفسها شيئًا.

وقد بينَّا أن السبب الأعظم في كارثة (أحد) كان منطويًا:

أولًا في مخالفة رأى رسول الله ﷺ، والتقدم بين يديه بآراء تخالف ما أشار به على أصحابه عند التهيؤ والاستعداد للمعركة، معتمدًا على وحي الرؤيا التي أُريها ﷺ عشية الخروج إلى المعركة وأولها لأصحابه بأن المدينة هي الدرع الحصينة التي أدخل فيها يده في الرؤيات، فأبى المتحمسون من الشباب الذين فاتهم فضل بدر إلا الخروج إلى أعدائهم ومقاتلتهم خارج المدينة خشية أن يجبنوهم، ورأى رسول الله ﷺ أن لا يخالف جمهرة هؤلاء المخالفين اتقاء الفشل الذي ينشأ عن المنازعة، فخرج بهم ﷺ وهو كاره لهذا الخروج.

ونشبت المعركة واشتعلت حمية كتائب الجهاد، وسرع ما ألمت الهزيمة بحشود الأعداء من المشركين على ما كان من

كثرة عددهم وعدتهم وحماسهم في قتال المسلمين.

بيد أن هذا النصر لجيش المسلمين لم يكن إلا نصرًا للجولة الأولى في صدق العزيمة وفورة الحماسة عند الذين آثروا الخروج من المدينة مخالفين لرأى رسول الله ﷺ على البقاء فيها متابعة له وإذعانًا لأمره، وهو القائد الأعظم، المؤيد بوحي الله تعالى.

ومن ثم لم يكن هذا النصر ليقوى على البقاء والثبات إلى نهاية المعركة، ولكنه كان نصرًا لم يحتمل البقاء أمام تخلخل صفوف المسلمين إثر مكيدة كادهم بها الشيطان في صفوف الرماة.

ثانيًا كانت مخالفة الرماة لأوامر رسول الله ﷺ ووصاياه هي المعْول الذي فكك عرى التماسك بين صفوف المسلمين، لأن هؤلاء المخالفين من الرماة لم يطيقوا الصبر على تجرُّع مرارة الطاعة المطلقة عن تعسف التأويل لأوامر القيادة العظمى، قيادة النبي ﷺ، إذ أنهم لم يكادوا يرون معالم النصر تلوح في أفق جيش المسلمين حتى تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله ﷺ، وأمرهم أن لا يبرحوها حتى يأذن لهم، وركضوا إلى الدنيا يريدونها، ونزلوا إلى مشاركة الجيش المنتصر في جمع الغنائم واحتيازها، وتركوا أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه الذي ذكرهم بأمر رسول الله ﷺ فلم يعبئوا بتذكيره، وتشبثوا بأهداب التأويل المتعسف، ولم يبق مع قائد الرماة إلا فئة قليلة صبرت معه حتى استشهدوا جميعًا رضي الله عنهم، وتنزلت المحنة وأقبلت عواصف القواصف، وكان مما فصلناه من أحداث وأزمات وشدائد تحمل عبء وطئها رسول الله ﷺ مع طائفة قليلة من خلص أصحابه وأبطالهم.

العوامل المؤثرة التي كانت وراء محنة أحد هي مخالفات أوامر القيادة العظمى:

وبهذا العرض الإجمالي يتبين أن محنة (أحد) إنما كانت كما أسلفنا بسبب انحراف بعض المجاهدين فيها انحرافات نالت من نفوسهم نيلًا أبعدهم قليلًا عن سواء القوة الإيمانية التي كانت لهم في جميع مواقفهم وصدق عزائمهم قبل أن تنزل بهم هذه المحنة القاسية.

وهذه الانحرافات وكما قلنا تتمثل في:

أولًا انحراف من انحرف من جند الجهاد عن صراط وجوب متابعة رسول الله ﷺ في قيادته الحربية والسياسية، كوجوب متابعته في القيادة العقدية والتعبدية والنظامية التي يقوم على دعائمها توجيه المجتمع المسلم توجيهًا تربويًا سلوكيًا في نظام حياته وعلاقاته داخل إطاره الإيماني وعلاقاته خارج هذا الإطار.

وهو ﷺ في هذه القيادات وغيرها من سائر توجيهات المجتمع أعلم بالله وتصاريفه في حركات الحياة وسكناتها، وهو المؤيد بالتوفيق وسداد الرأي، وتنزل الوحي، فما كان ينبغي لأصحابه الذين شهدوا تأييد الله له ﷺ بنصره وهو وحيد، يدعو الحياة ومن فيها إلى متابعته فيما جاء به من الهدى والنور والخير والإصلاح، وأن لا يخالفوا عن أمره وقد أخبرهم برؤياه ﷺ عشية صبح المعركة ورؤياه ﷺ مرتبة من مراتب الوحي المقتضية بقاءه بأصحابه المجاهدين معه في المدينة، وفيها يلقى عدوه لأن الله تعالى أراه في منامه أنها درعه الحصينة، ولكن نخوة الحماسة

الشبوبية تغلبت بكثرتها على أهل التجارب من الأكابر، فخرج بهم ﷺ موافقة لهم بعد أن تهيأ للخروج، واتخذ آلة الحرب تفاديًا للتنازع الذي يفت في عزائمهم.

ثانيًا انحراف مَنْ انحرف منهم عن صراط وجوب متابعته ﷺ والتسليم له في جميع ما يأمر به أو ينهى عنه مع السمع والطاعة لتحقيق مراداته والإسراع إلى تنفيذ وصاياه دون تأويل متعسف أو انحراف متكلف.

لكن جمهور الرماة الذين وطأ لهم القائد الأعظم مواقف يحمون منها ظهر الجيش المسلم وهو مشتبك مع أعدائه تنكبوا صراط وجوب المتابعة، وخالفوا أمره ﷺ الذي أكده عليهم تأكيدًا بينًا لا يحتمل التأويل بأن لا يبرحوا مكانهم حتى يرسل إليهم.

ثالثًا انحراف من انحرف منهم عن مهيع الحب الإيماني الذي يجب أن يحاط به النبي ﷺ من كل مؤمن برسالته، وهو حب يجعله ﷺ بمنزلة فوق منزلة كل أحد من الخلق، ومظهر ذلك الحب هو التسليم المطلق بكل ما جاء به من الهدى وما يأمر به من صنوف الخير، وتحكيمه ﷺ في كل ما يعترض المؤمنين في حياتهم حتى يكون أحب لقلوب المسلمين من أنفسهم التي بين جنوبهم، وأحب إليهم من والديهم وولدهم ومالهم وسائر ما يعز ويؤثر في الحياة إلى التزيد في الحب العاطفي، والعاطفة تعجب فتحب وحبها جموح لا يملك زمامه، تغذيه الغرائز ويقوده الإعجاب الشخصي ويداخله الهوى النفسي، فيخلع على المحبوب ما ليس له بحق، ويخرج بالمحب إلى الغلو المفرط

والتقديس المؤله، أما الحب الإيماني: فهو حب تمليه العقيدة، ويغذيه الإيمان، ويقوده الإعجاب بالمعاني والحقائق الإيمانية الخالدة، فهو حب مكسوب لا يجمح بصاحبه، ولا يعطي شخص المحبوب شيئًا ليس له في شرعة الإيمان.

فواصل بين الحب الإيماني والحب العاطفي:

بيد أن الحب العاطفي يستحوذ عليه التخيل الذي يصور حياة المحبوب في نظر المحب على غير حقيقتها، وينسى المحب أن محبوبه خاضع بالقهر لمقاييس الحياة التي يلاحقها الموت حتى يلقى بها بين أحضان الفناء الذي ينهي هذا الحب العاطفي مطوّحًا به إلى غير قرار.

أما الحب الإيماني فهو حب منشؤه الإيمان بحقائق لها طابع الخلود والبقاء السرمدي في داخل النفس الإنسانية، وهي حقائق لا يلاحقها موت ولا يدركها فناء؛ لأنها لا ترتبط بالشخص المحبوب وإنما ترتبط بالمعاني والحقائق الإيمانية التي لأجلها يجب أن يؤثر المحبوب بكل ألوان الحب الإيماني، فالحب من أجل الحقائق الإيمانية هو الحب الخالد المهذب بخلود تلك الحقائق، لكنها أشبه بأشعة الشمس المضيئة لآفاق الأرض، إذا حجبت عن أفق أشرقت في أفق آخر، وهي هي لا تتغير ولا تتبدل ولا يلحقها ضمور ولا خمود.

كان هذا الانحراف من الحب الإيماني الذي كان يغمرهم بجلاله وهدوئه وقوة فاعليته إلى التزيد في الحب العاطفي هو العامل الأقوى في زلزلة الأقدام وخلخلة التماسك في صفوف المجاهدين من أصحابه ﷺ، فإنهم رضوان الله عليهم لم يكادوا

يسمعون إرجافة الشيطان وصرخة ابن قمئة لعنه الله بأن محمدًا ﷺ قتل حتى انفرط عقد وحدتهم في ميدان المعركة، وانحلت عرى ترابطهم، وتزايلت مفاصلهم، وانخلعت وصائل أعصابهم عن معاقدها وأوضعت الفتن خلالهم، فاستزلهم الشيطان بوساوسه، وضعفوا واستكانوا والرسول ﷺ يدعوهم في أخراهم «إليَّ عباد الله» فأصمّهم الدهش المذهل عن سماع ندائه والإصغاء إلى دعائه، وأنساهم التزيد في حبهم العاطفي لرسول الله ﷺ أن محمدًا صلوات الله عليه إنسان من البشر المصطفين لحمل رسالات الله وتبليغها الناس، يجوز عليه ما جاز على إخوانه من الرسل قبله الذين مضوا إلى لقاء ربهم مفارقين الدنيا إلى ما أعده الله لهم من عظيم الإنعام في دار الخلود، وهي خير لهم وأبقى.

وقد كان هذا التزيد في الحب العاطفي غطاء كثيفًا حجب عن بصائر المجاهدين الحقيقة البشرية لمحمد ﷺ، وأنساهم حدود الحب الإيماني، هذا الحب الذي يضع الأمور في مواضعها، لأنه حب يعرف لكل موجود خصائصه الذاتية وحقه في الحياة بمقتضى تلك الخصائص، ويعرف أن حق محمد رسول الله ﷺ على أمته أن يكون حبهم له نبيًا ورسولًا فوق حبهم لأنفسهم التي بين جوانحهم وفوق حبهم آباءهم وأمهاتهم وولدهم والناس أجمعين، ويعرف أن أعظم ثمرات هذا الحب هو الإسراع إلى امتثال أمره ومتابعته في جميع أقواله وأفعاله وإقراراته، وأن يكون هوى كل مسلم تبعًا لما جاء في رسالته رسالة الحق والخير، والهدى والنور.

وهذا الحب الإيماني يعرف قبل هذا وبعده أن محمدًا رسول الله ﷺ بشر، وُلِدَ كما يولد البشر، ويجري عليه ما يجري على

سائر البشر من النبيين والمرسلين، وهم قد عاشوا في هذه الدنيا ما كتب الله لهم من آجال ثم مضوا وفارقوها فهو مثلهم يعيش ما كتب له من أجل ويمضي إلى لقاء ربه، ولم يجعل الله لبشر من قبله الخلد حتى تذهب بمن زُلزلوا عند الإخبار بقتله ﷺ إرجافا وكذبًا، فيتوهمون خلوده بينهم، ويصيبهم من الدّهش المذهل ما أنساهم بشريته، وأنه ﷺ ليس في فضله على سائر البشر وامتيازه إلا أنه رسول يوحى إليه ويجري عليه ما جرى على إخوانه الرسل من قبله.

ولهذا خاطبهم الله تعالى مذكرًا لهم بحقيقة محمد ﷺ التي أنساهم إياها غلوهم في الحب العاطفي، فلعبت بهم التخيلات والأوهام، وربطوا إيمانهم ببقاء شخصه ﷺ بأسلوب إنكاري معنف فقال لهم: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٤٤).

وهكذا كان الغلو والتزيد في الحب العاطفي هو العامل الأكبر في هزيمة الكتائب المسلمة، بعد أن أمسكوا زمام النصر بأيديهم لأول جولة من جولات المعركة قبل أن يرجف بهم الشيطان بصرخته وصرخة الخبيث الملعن ابن قمئة: إن محمدًا قتل، لأنهم لم تكد تلك الصرخة الفاجرة تقرع آذانهم حتى أرسلوا أقدامهم مع ريح الهزيمة مولين الأدبار لا يعرف بعضهم بعضًا لقسوة ما نزل بهم.

وصَبْرُ رسول الله ﷺ وحده في موقفه لا يزول عنه فترًا وهو يضارب العدو بقوسه حتى تشظت، فضاربهم بالحجارة، حتى

تحيَّزَ له فئةٌ من أبطال الجهاد من الذين لم يبعدوا في التولي وحدانًا يتبع بعضهم بعضًا حتى كانوا جماعة فاءت إلى عزائم الإيمان وشمروا للدفاع عنه ﷺ، وأحاطوا به من أمامه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله يفدونه ﷺ بأرواحهم وما ملكت أيديهم، وباعوا لله تعالى أنفسهم، وتجلت لهم منازل الشهداء من وراء حجب الغيب.

وكان رسول الله ﷺ قد اصيب في المعركة بجراحات دامية، وانقشعت عنه ﷺ جحافل الشرك وحشود الوثنية، وبلغت المعركة نهايتها وجراحات رسول الله ﷺ تبض بالدم الطاهر وجراحات أصحابه تستن، وصدورهم تئز أزيز المراجل فوق الأثافي من شدة الأوجاع والآلام وهم صابرون محتسبون ليتوب الله عليهم ويشملهم بعفوه ورحمته.

وقد عاتب الله تعالى المجاهدين الذين شهدوا معركة أحد عتابًا شديدًا ولاسيما على تغاليهم وتزيدهم في الحب العاطفي لرسول الله ﷺ وتوليهم عن ميدان المعركة، وقد أبان الله تعالى في هذا العتاب العنيف شؤم مخالفة جنود كتائب الجهاد لقائدهم الأعظم في خططه الحربية وسياسته في إدارة المعركة وخاصة إذا كان القائد الأعظم هو رسول الله ﷺ المؤيد بالوحي المسّدد بالتوفيق.

كان عتاب أهل بدر تعليما وتربية ونصحا وإرشادا:

كان هذا العتاب القاسي لونًا من ألوان التربية التي اشتملت عليها محنة أحد، وهي أول موقعة يقع فيها هذا الابتلاء الممحّص، وتنتهي بأقسى محنة عرفها المجتمع المسلم في جهاده بقيادة رسول الله ﷺ لأنها جاءت بعد نصر (بدر) العظيم مع ما كان في

بدر من مخالفة جمهرة المجاهدين عوتب عليها البدريون عتابًا لم يبلغ عتاب (أحد) في شـدته وتنوّعـه، واكتفى القرآن المجيد في عتابهم بقوله تعالى: ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ وذلك أنهم أسرعوا إلـى إنهـاء المعركة بمجرد ظهور بشـائر النصر، وشـغلوا بجمع الغنائم وأسـر الرجال قبل أن يثخنوا في الأرض، وهذا عتاب أشـبه بالنصح والتعليم منه بعتاب اللوم والتعنيف، لأن مخالفة البدريين لم يكن فيها أمر من رسول الله ﷺ، لكن مخالفات (أحد) تعدّدت واسـتعظمت وكانت فيها أوامر ووصايا من رسول الله ﷺ، فكان العتاب فيها عنيفًا شديدًا أشبه بالتأديب والزجر منه بعتاب التنبيه والإرشـاد، ليأخذ درس (أحد) التربوي مكانه من مداخل النفوس المسـلمة، حتى تكون منه على ذكر، لا تنسـيها معالمه شدائد ما تلقى من الحياة وصروفها في مستقبل مسيرها برسالتها.

وكان هذا الدرس الأحدي في حقيقته تعميقًا للإحسـاس بوجع الآلام التـي نالـت المجتمـع المسـلم نتيجـة لما صنعـه بيده من الانحراف عن منهج الرسـالة وهي في عراقة نشـأتها وقوة شبوبها عن مهدها، ليبقى هذا الإحسـاس آية مسـطورة في قلب كل مؤمن يلازمـه في حياتـه ويتوارثه الخلف عن السـلف وتتلقاه أجيال عن أجيـال، فـلا يغرب عن حياة المجتمع المسـلم مـا دام قائمًا بأمر رسالته الخالدة على أساس منهجها، وهو عتاب على ما كان فيه من شدة لم يكن عتاب مسخطة من الله تعالى على أولئك المجاهدين، وإنمـا هـو درس عملي مـن دروس التربيـة الإلهية لهـذا المجتمع القائـم بأمر الله في حماية دينه، يسـتهدف وضـع آثار الانحرافات

عن منهج الرسالة وضعًا يجعل من المجتمع المسلم قوة مطهرة من أوضار المخالفات، ولاسيما في ميادين الجهاد في ظل وحدة إيمانية تقوم في أصولها التربوية على الإيحاء لهذا المجتمع بما سيقابله في الحياة من شدائد وأزمات، ومحن لا يقيه أخطارها المدمرة إلا اعتصامه بمنهج رسالته.

عتاب يشعر بما كان للصحابة من منزلة رفيعة عند الله تعالى:

ولهذا جاء العتاب قاسيًا عنيفًا، بيد أنه خف بالتلطف الرباني المتمثل في التفضل بالعفو عنهم بأسلوب جمع من ألوان التوكيد ما يقتلع جذور المساءة باللوم والتقريع، ويزرع مكانها في قلوبهم كرامة ترضي الله منهم والرضا من الله عنهم، فقال تعالى حاكيًا لما وقع حتى لا ينسى مبينًا أسبابه ودوافعه لانحرافهم عن صراط المنهج الجهادي الذي جاءتهم به الرسالة الخالدة وذلك في قوله عز شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾
(آل عمران: ١٥٥).

وفي قوله تعالى: ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ﴾ تأنيس لهم ببرد العفو مع خطورة ما وقع منهم من الانحراف عن المنهج حتى لا يداخلهم اليأس في إحساناتهم وحسناتهم وهي كثيرة جمة قام على دعائمها هذا الدين القيم، وفي أسلوب سياق العفو المؤكد مبالغة في التلطف بهم لمسح ما علق بقلوبهم من خشية الله وخوف بطشه بهم.

وفي ختام آية العتاب بهذه الفاصلة المكسوة بإستبرق الرأفة والتذكير بالإنعام بسط للعفو الإلهي بسطًا ينتهي بالمغفرة السابغة والحكم الأكرم، حتى لا يبقى مع هذا البسط بما احتف به من الغفران السَّتور والحلم الكريم وَخْزٌ يعكر صفو جهادهم لإعلاء كلمة الله، وهذا هو عتاب الودود للمودود، والمحب للمحبوب الذي أريد به وضع أصول التربية للمجتمع المسلم تربية لا تعرف في شدتها الحقد والاضطغان، ولا تعرف في تلطفها الميوعة والإدلال، لتتلقاها أجيال المجتمع المسلم جيلًا بعد جيل، وليتخذها قادة هذا المجتمع أينما كانوا ميزانا لتقويم عوج المجتمع وإصلاح ما يكون فيه من فساد، ولتكون هذه الأصول التربوية ديدنهم في سياسة حياة المجتمع حتى يكون مجتمعًا صالحًا قوي الشكيمة موحد القوى، لا تحرقه الأحقاد، ولا تمزقه الضغائن، بل يجمع بينه الود والحب والتآخي الكفول.

وفي الحق أن هذا اللون من ألوان التربية الإسلامية التي تلقاها المجتمع المسلم وهو لا يزال في مهده يكاد يكون إعجازًا، لأنه لم يترك الشدة القاسية حيث كان الموقف يطلبها، ولم يبخل بالتلطف الودود بعد أن قامت الشدة بما يطلب منها، فهو لم يتسامح قط في تعريف المخطئ خطأه على قدر ما فيه من خطر على المجتمع أو ضرر للحياة، فقد اشتد في وصف ما وقع من الانحراف حتى أبكى وأدمى، ثم هو يتلطف ليداوي جراحات القلوب حتى يسيل رقة ورأفة وحلمًا ومغفرة، ومن وراء ذلك كله ما لا يدري كنهه من صنوف الإحسان وضروب الإنعام الذي لا

تستطيع وصفه الألسنة والأقلام.

ومن ثم أمر الله جل شأنه نبيه محمدًا ﷺ أن يكون في قيادته لمجتمعه وتربيته لأمته ومعاملته لها أفرادًا وجماعات ظلًا ظليلًا من العفو والغفران والحلم والإحسان والترفق، فيسبغ أكرم مكارم الأخلاق لطفًا ورأفة وتجاوزًا عما عسى أن يبدر منهم أو بدر منهم نحو منهج الرسالة، حتى ناله ﷺ ما ناله، وأن يستغفر لهم لتطمئن قلوبهم إلى منزلة الرضا من قلبه.

ثم زادهم حفاوة في معاملة رسول الله ﷺ لهم معاملة تزيد من قربهم بعد أن صورت الأحداث أنهم بعدوا بها عن مرضاته وحبه ومتابعته، فأمره الله تعالى أن يشاورهم فيما ينوب الحياة المسلمة من أحداث إلى جانب العفو عما بدر منهم في معركة أحد ليمحي ما ألّم بنفوسهم من شدّة وطأة العتاب.

وقد تحقق ذلك عمليًا في الخروج بهم قبل أن ينفض عنهم غبار معركة أحد إلى حمراء الأسد وهم في جراحهم التي بلغت بهم من الآلام والأوجاع أن أحدهم لا يكاد يستوي قائمًا من شدة ما يجد، ولكن فرحهم بعفو الله ورضوانه، وتلطف رسول الله ﷺ بهم في رقة المعاملة أنساهم كل آلامهم.

وقد زادهم الله في فضله أنهم لم يكادوا يبلغون حمراء الأسد متحملين على جراحهم حتى ألقى الله تعالى في قلوب أعدائهم المشركين وهم يتآمرون بالرجوع إلى من بقي منهم ليستأصلوهم الرعب والفزع، فصدهم عنهم وعادوا على أعقابهم خاسرين، وانقلب المسلمون إلى دارهم ومدينتهم وهم يردّدون مع رسول الله

ﷺ: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

وهكـذا كانـت بدر في نصرهـا المؤزر الوثيـق، وهكذا كانت (أحد) بعدها من قريب في درس محنتها التربوي القاسـي العميق في مفتتح الجهاد في سـبيل إعلاء كلمة الله وتقويض بناء الشـرك وصروح الوثنية غزوتين أخذتا بطرفي الحياة لينًا وشـدة، وقسـوة ورحمـة، ونصرًا وهزيمة، وقد جعـل الله منهما إطارًا لما ينبغي أن تتمثله الأمة الإسـلامية في مستقبل مجتمعها، تصب فيه الأحداث والوقائع، وتصور فيه الخطوط الأساسية التي يجب أن تقوم عليها حياة هذا المجتمع الريادي المستكشـف في ريادته لمعالم الحياة التـي نيط به قيادها فـي ضوء الواقع الذي لا يغلفـه الخيال بألوان براقة خادعة.

فالحياة في واقعها أشبه بطائر يطير في أجواز الكون بجناحين: جناح محنة وجناح منحة، فيوم لك ويوم عليك، ويوم تُساء، ويوم تُسر.

وليست الحياة كما يفهمها الفراغيون عبيد الشهوات المادية ورودًا وأزاهير مفروشـة في طريق السالكين، ولا هي أشواكًا تدمي أقـدام الغاديـن والرائحين، ولكنهـا حلاوة تعقبها مـرارة، ومرارة تليها حلاوة، فمن أذاقته حلاوتها فليرتقب مرارتها.

ولـم يغفـل المنهج الإسـلامي هذا الواقـع ليؤخـذ الناس على غفلاتهم، ولكنه نبه إليه بأسـلوب صوره قانونًا طبيعيًا من قوانين سير الحياة التي قدّرها الله في غيبه المحجوب، وسنة من سنن الله التـي تخضع لها أنظمة الحياة، فالله تعالى يقول في القرآن الكريم وهو الدستور الأعظم للمجتمع المسلم ـ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ

﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩ إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٣٩، ١٤٠).

وليس معنى هذا أن الإيمان يفقد خصيصته في علو منزلته وسمو مكانته من الله وإنما معناه أن التغالب في الحياة قانون قائم تسير الحياة به على مقتضى سنن الله العامة، ليأخذ أهل الإيمان حذرهم من الركون إلى مجرد الإيمان، بل يجب عليهم أن يجعلوا من قوادم الإيمان وخوافيه ركائز له بالعمل الجاد وعدم الغفلة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبۡتِغَآءِ ٱلۡقَوۡمِۖ إِن تَكُونُواْ تَأۡلَمُونَ فَإِنَّهُمۡ يَأۡلَمُونَ كَمَا تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١٠٤).

كما بين القرآن الحكيم أن النصر والخذلان لا يرتبطان ارتباطًا ماديًا اعتمادًا على القوة المادية وحدها، ولكنهما في سنن الله العامة كفتا ميزان طبيعي في يد العزيز القهار وهو وحده الذي يملكه ويتحكم فيه، فيؤتي نصره من يشاء من عباده، جريًا على مقتضى حكمته تعالى وهو العزيز الحكيم، ويخذل بحكمته من يشاء من عباده، فلا تستطيع قوة في الحياة أن تجعل من هذا الخذلان نصرًا، مهما كانت القوة المادية التي تقف إلى جانب من يملك هذه القوة المادية، وهذا ما يقرره القرآن الحكيم في قول الله عز شأنه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ (آل عمران: ٢٦) وفي

قوله تعالى: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ (آل عمران: ١٦٠).

وليس معنى ذلك أن أمور الحياة تجري سبهللة بغير ضوابط تربطها من سنن الله الكونية، وإنما معناه أن السنن الكونية التي تجمع المتفرق من أمور الحياة محكومة بالقهر الإلهي، وتتنزل بحكمة التقدير الإلهي، يسيِّرها خالق الكون وحده، لأنه هو مالك نواصيها، ومدبر أسبابها ومسبباتها، سواء أن تكون تلك الأسباب والمسببات مادية أو معنوية، وهذه الأسباب والمسببات المعنوية ترتكز على قوة الإيمان واليقين، فلا القوة المادية وحدها بجالبة للنصر، ولا ضعف هذه القوة المادية وحده بمسبب للخذلان، إنما المرجع إلى الله مالك القوى والقدر، ولهذا أمر الله تعالى عباده المؤمنين بصدق التوكل عليه بعد إعداد الأسباب المادية فقال جل شأنه: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

وللنصر أسباب مادية ظاهرة وعوامل مرئية تتنزل من سماوات فضل الله تعالى وإنعامه، وللخذلان أسباب تستجلبه من مواقع بأس الله وبطشه.

والنصر والخذلان ظاهرتان كونيتان ليست لهما دلالة ذاتية على رضاء الله أو سخطه، وليس لهما ثبات السنن الكونية التي يقوم عليها نظام الحياة في سيرها إلى غايتها، وإنما هما من طائفات الأحداث التي تندرج في إطار الوقائع التي تتداول الحياة في موازينها الاجتماعية لتوازن الوضع الاجتماعي بين طوائف

البشـر وأممهم وشـعوبهم ودولهم ليأخذ كل فـرد ومجتمع حقه منها طبقًا لمجرى الحكمة الإلهية في الكون.

وقد سبق لنا أن ذكرنا بالتفصيل ما كان لغزوة بدر من مقدمات وأسـباب، وما كان في ذلك من مواقف سياسـية للنبي ﷺ جعلت من هذه الأسباب إعدادًا نفسيًا لخوض المعركة مهما كانت آثارها وعواقبهـا، ثم ذكرنا ما كان فـي (بدر) من أحداث ووقائع انتهت بهـا إلى النصر المؤزر، ومـا كان لذلك من أثر عميق في قلوب من بقي من أعداء الإسلام؛ مما جعلهم بعد إفاقتهم من سكرة الهزيمة المنكرة التي حلت بهم فأهلكت أشـرافهم وصناديدهم يفكرون في الثأر من المجتمع المسـلم بغزوه في عقر داره بقوة لا يستطيع مواجهتها في قتال.

وقـد جعلوا من عيرهم التي كانت سـبب غزوة بدر بعد أن نجا بها قائدها أبو سـفيان بن حرب مصدرًا لتجهيز حشد من المرتزقة والأحابيش، وصعاليك العرب من القبائل المتربصة.

وكانـت غزوة أحد بأحداثها وأزماتها وشـدائدها درسًـا تربويًا أفـاد منها المجتمع المسـلم كثيرًا من العبر فـي تصاريف الحياة وتقلباتها.

كانت محنة أحد سراجا أضاء الطريق أمام المجتمع المسلم:

لقد فتحت محنة(أُحد) أمام المجتمع المسلم الطريق ليتعرف موقـف المتربصيـن بـه دون إقدام علـى محاربته لمـا أصابهم من الدهش المذهل حين سـمعوا دوي نصر بدر الذي ملأ قلوبهم رهبًا ورعبًا وهلعًا.

وكانت أخبار هؤلاء وهؤلاء ترد متوالية على رسول الله ﷺ، فيأخذ لكل حدث أهبته، وتتابعت البعوث والسرايا المستكشفة تجوب مواقع الأحداث، وكانت محنة (أحد) صيقلاً أذاب صدأ هزيمتها عن صدور أصحاب رسول الله ﷺ، فجعلت منهم بطولات فدائية لا ترهب الموت، وجعلت منهم قيادات سياسية تحسن الرأي وتحكم الفكرة، وجعلت منهم قيادات عسكرية تدير المعارك القتالية بتفكير مجرب يعرف المخارج من أزمات المضايق، ويعرف المداخل التي يؤخذ منها العدو.

ومن ثم تتابعت البعوث والسرايا والغزوات، ووقف أصحاب رسول الله ﷺ متأهبين لكل حادث ونازلة، لا ينامون ولا ينيمون، ولا يغفلون عن بادرة يحسون نبأتها إلا أسرعوا إليها خفافًا وثقالًا يخوضون لججها، ويقتحمون سعير أوارها بنفوس رضية سمحة بالفداء وحب الشهادة.

ولم يكد يمضي يوم منذ محنة (أحد) دون أن يكون فيه بعث فدائي محارب أو سرية ترهب وترعب، أو إعداد لغزوة تقاتل فيها كتائب الإسلام فتنتصر.

هدف هذا البحث إبراز جوانب منهج رسالة الإسلام العقدية والاجتماعية:

وقد بينا أن منهجنا في البحث لا يقصد إلى سرد الروايات والأقاصيص، واستيعاب الوقائع والأحداث، وإنما أقمنا إطار البحث على إبراز الخطوط الأصيلة لجوانب منهج رسالة الإسلام، وما فيها من هداية وإصلاح، لأن ذلك هو المقصود الأعظم لهذه

الرسـالة الخالدة في ظـل العقيدة التوحيديـة، وهذه هي خصيصة الإسلام بوصفه دينًا لإقامة صرح التوحيد وتقويض الشرك بجميع أنواعه وهدم الوثنية في سـائر صورها وأشكالها، ثم بوصفه نظامًا اجتماعيًـا متكامـلًا، ونمطًـا فكريًا متوازنًـا، ومنهجًـا إصلاحيًا متوافقًا، لا يرد عقلًا مسـتقيم التركيـب الفكري عن الدخول في سـاحته، ولا يرفض علمًا سـويّ المعالم في مقدماته ونتائجه، ولا يعرف للفكر الإنساني حدودًا يقف عندها لا يتجاوزها.

ولهـذا كان حديثنا في إطار الغزوات حديثًـا قائمًا على التنقي والاختيـار، ونرجو دائمًـا أن لا تفوتنا المحاولة فـي أن لا ينِدّ عن البحـث والنظر حادث يحمل في طياته جانبًا منهجيًا من خصائص الرسـالة الخالدة وحقائقها ومعانيها التي نزلت لتحقق في الحياة عملًا واقعيًا يعيش الناس فيه، ويعيش مع الناس.

تدرج البحث في أحداث وأحاديث الغزوات المنتقاة:

لقد اسـتقام لنا عند النظر في خطة البحـث أن نجعل الحديث موصولًا فـي الغزوات التي كانت مع قبائل العرب وبطونها بقيادة زعامـات محلية مـن رجالات هذه القبائل بعـد أن انهارت زعامات قريـش، مؤجلين البحث فيما كان من أحداث اليهود والمنافقين، والقضـاء على هـؤلاء وهـؤلاء أفـرادًا وجماعات حتـى نصل إلى الحديـث عن (الحديبيـة ومعاهدتهـا) التي كانت نهايـة النهاية لأحـداث اليهود وربائبهم من المنافقين ذات الشـأن التاريخي في صدر الإسـلام، إذ لم يعد لهم ذكر في شـأن من شئون الحياة سوى مـا بقـي لبعض اليهود مـن وجود محـدود محصـور، يعملون فيه

الفهــرس

❀ ❀ ❀